الجزء ١٢ المجلد ٩



(دمشق) : كانون الاول سنة ١٩٢٩ م الموافق رجب سنة ١٣٤٨ هـ

بشار بن برد(١)

لما قامت الدولة العباسية على أثر سقوط الدولة الأموية اخذت الحضارة العربية شكلاً غير شكلها الاول : فالأوضاع الادارية تبدلت . والنزعات العقلية تغيرت . ودائرة العلم والفن والترف انفسحت وتوسعت . وقد دعا كل هذا الى ظهور نهضة جديدة في الشعر والأدب فاقت ما تقدمها من النهضات . واتفقت كلمة كتّاب تاريخ الآداب العربية على ان حامل لواء الشعر في صدر الدولة العباسية هو (بشار بن برد) .

ولكن أتظنون ان بشاراً يرضى بهذا ؟؟ فهو يزعم انه لو كان في عهد الجاهلية لبذّ فحولها . وأبرّ على شعرائها : فما أثر عنه انه قال (أزري بشعري الأذان) . كنى بالأذان عن الاسلام لأنه من أعظم شعائره . يريد ان ظهور الاسلام بقرآنه وبلاغة آياته غطّى عليه . وحال دون شهرته . والا فلو كان في زمن الجاهلية وقبل نزول القرآن لكان له شأن غير هذا الشأن .

(نسب بشار ونشأته) : برد ابو بشار فارسي الاصل من بلاد طخارستان ويظهر من قول جغرافيي العرب وجعلهم كابل من ثغور طخارستان أن طخارستان هي بلاد الافغان او انها كورة كبيرة منها . جاء برد البصرة في جملة سبي المهلب بن ابي صفرة فأهدته امرأة المهلب الى صديقة لها من بني عُقَيل . فأعتقته العقيلية . وتزوج برد . فوُلد له بشار . فكان

---

(١) محاضرة القاها الاستاذ «المغربي» في ردهة المجمع بتاريخ ٣٠ ايار سنة ١٩٢٤ م

بشار مولىً ولم يكن عربياً . ونشأ في بني عُقيل الأعراب الاقحاح فاستحكمت فيه ملكة اللغة العربية الفصيحة .

ولد بشار في أخريات ايام دولة الأموبين اي في حدود المئة للهجرة . ولما قام العباسيون كان في طور الشباب فهو من مخضرمي الدولتين اي انه عاش في زمنيهما . لكن اشتهاره بالشعر انما وقع في عهد المنصور العباسي . ثم في زمن ابنه المهدي . وقتله المهدي سنة مئة وثمان وستين للهجرة للأسباب الآتي ذكرها — بعد ان عاش سبعين ونيفاً من العمر . وكان ضخم الجثة طويلاً آدم اللون مجدوراً عظيم الخَلق والوجه وقد ولد أعمى وكانت حدقتاه جاحظتين (اي ناتئتين) وقد تغشاهما لحم احمر . فكان أقبح العميان عمىً . وأفظعهم منظراً . وما أقرب الشبه وأبعده بين بشار وابي العلاء المعري : الشبه بينهما قريب من حيث ان كلاً منهما ولد أعمى او عمي بالجدري وهو صغير . ثم لما تعلقا بالأدب والشعر ساعدهما عمى عين البصر على انفتاح عين البصيرة . فانصرفت مخيلتهما بكليتها الى سمو التصور الفكري . والإبداع في التخيل الشعري . حتى بلغا في ذلك مبلغاً يخط عنه السيل . ولا يرقى اليه الطير . وقد تشابها ايضاً من حيث انطلاق فكرهما . مما تقيد به غيرهما : فذهبا في التصريح فيما يعتقدانه كل مذهب . ومن جراء ذلك رُميا بالكفر ونسبا الى الزندقة .

هذا وجه التشابه بينهما اما وجه التباين والتخالف فظاهر في أن بشاراً كان فارسي النجار . اما ابو العلاء فكان عربياً قحّاً . وكانت فلسفة بشار فلسفةً مادية باطلة . حاشا فلسفة ابي العلاء فان فلسفته روحيةٌ فاضلة . وكان معظم شعر بشار فيما يثير الشهوة ويهون أمر الرذيلة . بينما كان ابو العلاء شريف النفس عفيفاً موفور الكرامة . ومعظم شعره فيما يثير حب العمل الصالح في النفس ويحض على ممارسة الخير والفضيلة والتأمل في أسرار الكون ونواميس الاجتماع .

كان برد والد بشار طياناً حاذقاً بالتطيين . فلما ولد له بشار كان يقول ما رأيت مولوداً أعظم بركة منه . ولقد ولد لي وما عندي درهم فما حال الحول حتى جمعت مائتي درهم . ثم قال بشار الشعرَ وهو صغير في حياة ابيه . فكان اذا هجا قوماً جاؤا أباه وشكوه اليه فيضربه ضرباً مبرحاً . فكانت أمه تقول له : الى كم تضرب هذا الصغير ? اما ترحمه ?

فيقول بلى والله ولكنه يتعرض للناس فيشكونه اليّ . فسمعه بشار يوماً يقول هذا القول لأمه فهتف به : يا أبت ! ان هـذا الذي يشكونه مني اليك هو قول الشعر . واني ان ألمتُ به أغنيتك وسائر اهلي . فان شكوني اليك بعد الآن قل لهم : أليس الله يقول : (ليس على الأعمى حرج) . فلما عادوا وشكوه قال لهم برد : أليس الله يقول : (ليس على الاعمى حرج) فانصرفوا وهم يقولون « تالله لفقه برد أغيظ لنا من شعر بشار » .

من هذه الساعة . من حضن العائلة . من بين ذراعي الأب والأم اختط بشار لنفسه خطة التهجم على الاعراض توسلاً الى الكسب واغناء اهله .

وطريقته هذه هي نفس طريقة (الحطيئة) الشاعر الجاهلي من حيث ان كلاً منهما اتخذ الهجوَ وهتكَ أعراض الناس وتهديدهم باذاعة أسرارهم — طريقاً الى جر مغنم اودفع مغرم . وهذه الطريقة هي ما تسميه أدباء الافرنج (شانتاج) ويظهر ان في شعرائهم كثيرين مشوا على هذه الطريقة الملعونة .

وقد عرف بشار وهو صغير جريراً الشاعر وسمع شعره . فهاج في نفسه الشاعرية وحبب اليه الاشتهار بالشعر . وارتأى ان ينال هذه الشهرة على حساب جرير . وحاول ان يهجوه فيردّ عليه جرير . فيشيعَ ذكره . ويعظم امره . لكن جريراً أعرض عنه استخفافاً به . قال بشار : (ولو هاجاني لكنت أشعر الناس)

وكان لبشار أخوان قصابان وهما (بشر وبشير) فكانا يستعيران ثياب اخيهما الاعمى بشار ويلبسانها في مهنتهما . فتتسخ وتنتن ريحهـا . وكان هو باراً بهما . صبوراً على أذاهما . وفي آخر الامر اتخذ لنفسه ثياباً خاصة . وحلف ان لا يعيرهم اياها . فكانوا يأخذونهـا بغير اذنه ويلبسونها . فكان اذا أعياه الامر لبسها وخرج الى الناس بها على نتنها ووساختهـا . فيقال له ماهذا يا أبا مُعاذ ؟ (وهي كنيته) . فكان يقول لهم « هذه ثمرة صلة الرحم ! ! ! » .

(اخلاقه واطواره) : كان بشار كثير التلوّن لاثبات له ولاسيما في امر نسبه وعروبته وشعوبيته : فهو تارةً يفتخر بولائه للعرب . وطوراً يتبرأ منهم ويتعصب للعجم . وآونةً يتبرم بالفريقين . ولسان حاله ينشد قول زميله ابي العلاء المعري الذي قال بعد التجربة :

(لعمري لقد جرّبتُ عجباً كثيرة وعرباً : فلا عجباً حمدت ولا عربا)

وكان من أشد الناس تبرماً بالناس . وكان يحمد الله على العمى . فيقال له ولما ذا يا أبا معاذ ؟ فيقول لئلا ارى الثقلاء . وكان اذا اراد ان ينشد شعراً صفق بيديه وتنحنح وبصق عن يمينه وشماله ثم ينشد فيأتي بالعجب .

اما مذهبه الفلسفي الذي كان السبب في تهمته بالزندقة فهو ملخص في هذه الجملة التي كان يقولها « انا لا أعرف الا ما عاينته . او عاينت مثله » فالرجل على ما يظهر من كلمته هذه كان مادياً لا يعرف الا المادة . والمدركات المحسوسة . فمذهبه هذا يقرب من المذهب الفلسفي الحديث وهو مذهب الحاسيّين اوالتجريبيين . ومؤسسا هذا المذهب باكون وديكارت . وقد يكون الذي حمل بشاراً على هذا المذهب غلوّ المتنطعين من الجلجلوتيين والحشويين . وشدّ ما كان هؤلاء الحشويون الذين يكذبون على الدين سبباً في تبرم العقلاء . وسوء ظن الفضلاء : مر بشار بقاصٍ من هؤلاء الحشوية يقص في المسجد فسمعه يقول : من صام رجباً وشعبان ورمضان بنى الله له قصراً في الجنة : صحنه الفُ فرسخ في الف فرسخ . وعلوه الفُ فرسخ . وكل باب من ابوابه عشرة فراسخ في مثلها . فالتفت بشارٌ الى قائده وقال : (بئست والله هذه الدار في شهر كانون الثاني) يعني انها لفرط سعتها لا تدفأ . فبسبب هذه الحكاية قد يتهمون بشاراً انه ينكر وجود الجنة . والحق انه انما ينكر على هؤلاء القصاص الحماقات التي يبرء الاسلام منها .

ويشبه هذا ان بشاراً كان ينتظر يوماً الاذن على المهدي والمهدي في مجلس الخلافة وكان مع بشار في الانتظار آخرون وبينهم مولى من موالي المهدي المتملقين اسمه (المعلّى ابن طريف) فسأل المعلى عن معنى تفسير قوله تعالى (وأوحى ربك الى النحل) الى قوله (يخرج من بطونها شراب) — ما هو النحل ؟ وما هو الشراب ؟ فسكت الحاضرون لكن بشاراً لا يهاب احداً فأجابه : النحل معروف والشراب هو العسل . قال هيهات : النحل بنو هاشم والشراب الذي يخرج من بطونهم هو العلم هو العلم . فلم يطق بشار صبراً فقال له : « جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بني هاشم » فغضب الرجل وضج الحاضرون وبلغ الخبر الخليفة المهدي فدعا بهما وأعاد عليه القصة فضحك . والتفت الى الرجل وقال له حقاً انك بارد غث .

وكان ينشد المهدي يوماً وفي المجلس خال المهدي يزيد بن منصور الحميري فلما فرغ بشار أقبل عليه يزيد وسأله (ياشيخ ماصناعتك ؟) قال أثقب اللؤلؤ . فضحك القوم فقال المهدي ويلك أتتنادر على خالي ؟ قال وما اصنع يا امير المؤمنين ! يراني شيخاً اعمى انشد الخليفة شعراً فما عسى تكون صنعتي سوى الشعر .

فغباوة هؤلاء الاغبياء جعلته يفلت بكلمات حسبوها عليه زندقة . ورب زندقة انتجتها مخرقة .

(فضله وفصاحته وتمكنه من اللغة العربية) : قال الجاحظ في (البيان والتبيين) « بشار من المطبوعين اصحاب الابداع والاختراع المتقنين في الشعر الآخذين في اكثر اجناسه وضروبه » . وقال نجم ابن النطاح « عهدي بالبصرة وليس فيها غزل ولاغزلة الا وهو يروي من شعر بشار . ولا نائح ولانائحة ولا مغنية الا تتكسب بشعره . ولا ذو شرف الا وهو يهابه . ويخاف معرة لسانه » . وقال المبارك لبشار « ليس لاحد من شعراء العرب شعر الا وفيه المستكره المشكوك فيه من الالفاظ سوى شعرك » قال : ومن اين يأتيني الخطأ وقد نشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل . وان دخلت الى نسائهم فنساؤهم أفصح . ثم أيفعت فأبديت (اي دخلت البادية) الى ان ادركت . فمن اين يأتيني الخطأ ؟

قال بعضهم : سألت ابا عبيدة عن السبب الذي من اجله شدد المهدي في نهي بشار عن شعر الغزل والنسيب قال : كان اول ذلك افتتان نساء البصرة وشبانها بشعره حتى قال القاضي سوار ومالك ابن دينار : ما شيء ادعى لاهل البصرة الى الفسق من اشعار هذا الاعمى .

وكان واصل بن عطاء يقول : ان من اخدع حبائل الشيطان واغواها كلمات هذا الاعمى الملحد . فلما كثر ذلك وانتهى خبره الى المهدي من عدة جهات نهاه المهدي عن الغزل والتشبيب . وكان المهدي شديد الغيرة . قال : فقلت لابي عبيدة : ولكن ماحسب ان شعر بشار أبلغ في التشبيب والغزل من شعر عشاق العرب : (عروة بن حزام) و (مجنون ليلى) و (كثير عزة) و (جميل بثينة) — قال : ليس كل من يسمع أشعار هؤلاء يفهم المراد منها . اما بشار فيقارب النساء . حتى لايخفي عليهن ما يقول في شعره .

واي حرة حصان تسمع قول بشار ولا يؤثر في قلبها فكيف بالمرأة الغزلة . والفتاة الطامعة .
ثم انشده ابوعبيدة قصيدة بشار التي قال فيها :

(قولي لها بقــة لها ظفر ان كان في البق ما لها ظفر)

أما تمكن بشار من العربية فذكروا له شواهد : منها انه كان له صديق اسمه (دَيْسم العنزي) فبلغ بشاراً ان ديسماً هذا يروي شعراً لخصوم بشار في هجوه فغضب وقال :

(أديسم يا ابن الذئب من نجل زارع أتروي هجائي سادراً غير مقصر)

سئل ابو زيد الانصاري عن معنى هذا البيت ؟ فسألهم ولمن هو ؟ قالوا لبشار . قال : قاتله الله ما اعلمه بكلام العرب ! ثم فسره لهم فقال (ديسم) اسم الرجل صديق بشار وهو في اصل اللغة اسم لولد الذئب من الكلبة . كما ان (العِسبار) ولد الضبع من الذئب و (السِمع) ولد الذئب من الضبع . فقول بشار لصاحبه (أديسم يا ابن الذئب من نجل زارع) هو بمنزلة قوله له : اسمك ديسم وليس الديسم سوى ولد الذئب من الكلبة . فأبوك ذئب وأمك كلبة . وقوله من نجل زارع . اي من نجل الكلاب . والعرب تسمي الكلاب (اولاد زارع) لماذا ؟ لانهم يلقون اقذارهم في الطرقات و يزرعونها هنا وهناك .

ومن الشواهد على دقة نظر بشار في الشعر وشدة نقده له انه لما انشد مناظره في الشهرة الشعرية : مروان ابن ابي حفصة قوله :

(واذا قلت لها جودي لنــا خرجت بالصمت عن لا ونعم)

قال له مروان : (هلا قلت « خرست بالصمت » مكان خرجت بالصمت) فقال له بشار (إذن انا في عقلك ! ! فض الله فاك ! ! أأتطيّر على من أحب بالخرَس) ؟؟

وكان بشار يجذب قلوب الناس اليه فكانوا يترددون الى مجلسه لمشاهدة خلقته وسماع شعره . وحسن نادرته . فكان في كل امره معجباً . وكان النساء المتظرفات يدخلن عليه في الاسبوع مرتين فيجتمعن عنده ويسمعن من شعره ويطارحنه النوادر . قالت له احداهن مرة (ايُّ رجل انت لو كنت اسود اللحية والرأس) قال : (لو علمتِ ان بيض البُزاة أثمن من سود الغربان) قالت (أما قولك فحسن في السمع . ومَن لك بان يحسن شيبك في العين . كما حسن قولك في السمع) فكان بشار يعيد قولها ويتعجب من حسنه . ويقول انه لم يفحمه في حياته غيرها .

(كثرة شعره) : قلنا ان بشاراً نظم الشعر وهو ابن عشر سنين ثم عاش زهاء الثمانين سنة · فكم نظم في مدة السبعين او الستين سنة من القصائد والمقطعات ؟ افتخر مرةً بان له اثني عشر الف بيت جيد · فاستبعدوا ذلك واستكثروه · فقال اني نظمت اثنتي عشر الف قصيدة · ألا يوجد في كل قصيدة منها بيت جيد ؟ فهو ولا ريب من اكثر الشعراء شعراً · لكن لم يبق من شعره سوى القصائد النزرة · والقطع المتفرقة · في ثنايا كتب الادب ومجاميع الشعر · وقال مؤرخو أدب العرب انه ليس لبشار ديوان مجموع وعللوا ضياع شعره بما تضمنه من السب والقذع والطعن في الاعراض واوصاف النساء والاقوال الغزلة التي تفسد نفوسهن وتحبب اليهن الرذيلة مما حمل صلحاء عصره وخاصةً الحسن البصري ومالك بن دينار وواصل بن عطاء على التشنيع عليه وشكوه المرة بعد المرة الى الخليفة المهدي ووزيره (يعقوب بن داود) فصدر امر الخليفة بنهيه عن ذكر النساء والشعر الغزل المفسد للاخلاق والضار بالآداب العمومية كما نقول في اصطلاحات هذه الايام · وربما صادرت الشرطة الاوراق والدفاتر التي فيها شعره من ايدي الناس ومُنع المغنون في المحافل العامة والاسواق عن التغني بشعره · كما يفعل ولاة الامور اليوم في مصادرة الكتب البذيئة والتصاوير الماجنة والمقالات المهيجة ·

ومما ساعد على ضياع شعره ان بشاراً في آرائه السياسية لم يكن موالياً للدولة الجديدة الناهضة أعني الدولة العباسية حتى أدى الامر الى قتله كما سيجيئ · فلم يكن احد من الوراقين أو النساخين يجرأ على جمع شعره في ديوان · هذا ماقاله مؤرخو الآداب العربية في سبب اضمحلال أشعار بشار ·

اما ماعمله مجمعنا العلمي من هذا القبيل فهو ان السيد منيب الناطور احد أدباء بيروت كان سعى منذ بضعة عشر سنة في جمع ديوان لبشار وكان يلتقط أشعاره و يبحث عنها في مختلف الأقطار حتى انه استنجد برصيفنا الاستاذ (المعلوف) فاستنسخ له طائفة من شعر بشار وقصائده من بلاد الروسية · ثم لم نعلم اي مانع منع السيد منيب المومأ اليه من انجاز طبع تلك الاشعار ونشرها · ما لنا ولهذا فان لدى المجمع العلمي من خبر بشار ماهو اقرب وأطرب : ذلك ان صديق المجمع الأبرّ (احمد تيمور باشا) كتب الى المجمع ان المؤرخ التونسي الشهير واحد اعضاء مجمعنا (الاستاذ حسن حسني عبدالوهاب) قد عثر في تونس على

ديوان بشار · وانهم شارعون في طبعه · لكن لاندري ان كان هذا الديوان قد جمع في القرون الاولى · او مما جمعه المتأخرون من أشعار بشار المبعثرة في كتب الأدب على نمط مافعله (السيد منيب الناطور) ·

(عيون أشعار بشار) : لا يُذكر بشار الا ويُذكر معه على الفور بيته المشهور :

(كأن مُثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه)

وموضع النكتة في هذا البيت ان قائله قد عمي في بطن أمه لكنه اهتدى من حسن التشبيه في هذا البيت الى ما لم يهتد اليه البصراء ·

ومن مشهور قوله في المديح :

(لمستُ بكفي كفه ابتغي الغنى ولم ادر ان الجود من كفه يعدي)

(فلا انا منــه ما افاد ذوو الغنى أفدتُ وأعداني فأفنيت ماعندي)

وقوله (اذا دهمتك عظام الامور فنبــه لها عمراً ثم نم)

وقوله (يا واحد العرب الذي امسى وليس له نظير)

(لو كان مثلك آخراً ما كان في الدنيا فقير)

وقوله في خالد بن برمك جد البرامكة :

(أخالد انّ الحمد يبقى لأهله جمالاً · ولا تبقى الكنوز على الكد)

(فأطعم وكُل من عارة مستردةٍ ولا تبقهـا : ان العواريّ للرد)

وقد أعجب خالد بهذين البيتين حتى امر بان يكتبا ويعلقا في صدر مجلسه كما نفعل اليوم من تعليق الأشعار على جدران بيوتنا · وقال ابنه يحيى البرمكي : آخر مااوصاني به ابي العمل بهذين البيتين · إذن الشهرة العظيمة التي نالها البرامكة في الكرم والجود كان لبشار وشعره يد فيها · ومن مشهور قوله في الفخر :

(اذا الملك الجبّار صعّر خده مشينا اليــه بالسيوف نعاتبه)

وأشهر من هذا قوله :

(اذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس اوقطرت دما)

(إذا ما أعرنا سيداً من قبيلةٍ ذرى منبر صلى علينا وسلما)

وقال له بعض اصدقائه يوماً : يا ابا معاذ بينا نقول مثل هذا الشعر الذي يخلع القلوب نسمعك تعود فتقول :

(رَبابة ربة البيت تصب الخل في الزيت)
(لها عشر دُجاجات وديك حسن الصوت)

فما هذا التفاوت في شعرك يا بشار ؟ فأجابه : لكل وجهٌ وموضع يا اخي : فان قولي (اذا ما غضبنا غضبة مضرية) في موضع جد . وقولي (ربابة ربة البيت الخ) قصدت به الهزل مع جارية لي ربابة : انا لا آكل البيض من السوق . فأمدح ربابة لتعنى بالدجاجات وآكل بيضاً طرياً . والشعر الذي قلته في ربابة هو في نفسها أبلغ من (قفا نبك) في نفسك .

وما اعتذر به بشار عن نفسه يُعتذر به عن كثيرين من فحول الشعراء الذين يعزى اليهم شيء من الشعر الساقط : فانهم قد يكونون قالوه لمناسبة مثل مناسبة ربابة .

ومن قوله في الفخر ايضاً :

(يريدون مسعاتي ودون لقائها قناديل أبواب السماوات تزهر)

وقد سمى في هذا الشعر نجوم السماء بالقناديل .

ومن مشهور شعره في الغزل والنسيب البيت الذي حكم مؤرخو آدابنا العربية انه أغزل شعر قاله المحدثون وهو :

(انا والله اشتهي سحر عينيك وأخشى مصارع العشاق)

ومن أغزاله (يا قوم أُذني لبعض الحي عاشقة والاذن تعشق قبل العين احيانا)

وقوله (هل تعلمين وراء الحب منزلةً تدني اليك فان الحب أقصاني)

وقوله (لم يطل ليلي ولكن لم أنم ونفى عني الكرى طيف أَلَمّ)

(رفهي يا عبدُ عني واعلمي انني يا عبدُ من لحم ودمّ)

(عبدُ) مرخم (عبدةُ) وهي امرأة كان بشار يتغزل بها . و يغلطون فينسبون هذه الابيات الى عنترة العبسي و يجعلون مكان يا عبد ياعبل .

وقوله (اذا قامت لحاجتها تثنت كأن عظامها من خيزران)

وقوله (حوراء ان نظرت اليـ ـك سقتك بالعينين خمرا)

(وكأن رجع حديثها قطع الرياض كُسين زهرا)
(وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا)
وقوله (وما كأنني دارها اذ سألتها وفي كبدي كالنفط شبت به النار)
النفط كاز البترول وقد ضرب به مثلاً لشدة الاحراق .

واستأذن على المهدي فأذن له بشرط ان لا ينشده غزلاً فدخل وأنشد :
(يا منظراً حسناً رأيته من وجه جارية فديته)
(بعثت الي تسومني بُردالشباب وقدطويته)
(و يشوقني بيت الحبيـ ـب اذا ادكرت واين بيته)
(حال الخليفة دونه فصبرت عنه وما قليته)
(ونهاني الملك الهما م عن النساء وما عصيته)
(إن الخليفة قد ابى واذا ابى شيئاً أبيته)

هذا مبلغ شعر بشار من التخنث والغنج في حال نوبته وإنابته . فكيف يكون مبلغه في حالة لهوه وخلوته . لاجرم انه يحق للمهدي ان يقطع من إصلاحه الأمل . ثم يطرحه و يتربص به العلل . وقد فعل .

بشار في زمنه كان كجريدة حية من جرائد هذه الايام لكنها خصصت صفحتها الاولى للغزل والتشبيب وذكر النساء . وصفحتها الثانية للهجو والقذع والنيل من الاعراض . وصفحتها الثالثة للفخر والتمجد والمطاولة . اما صفحتها الرابعة وهي صفحة الاعلانات فقد خصها بذكر شيء من الحكم والمواعظ والأمثال : من ذلك أبياته البليغة في الحض على الاستشارة التي يقول في أولها

(اذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح او نصاحة حازم)

وقد بلغت هذه الابيات من الشهرة مبلغاً أصبح إنشادها معه مما يبعث على الملل والضجر . وقد رزقت هذه القطعة حظها من الشهرة وإعجاب الناس بها في كل زمان حتى في زمن بشار نفسه . قال الأصمعي قلت لبشار ان الناس يعجبون من ابياتك في المشورة فأجابه هذا الجواب البديع : « يا اباسعيد ان المشاور بين امرين : بين صواب

يفوز بثمرته . او خطأ يشاركك في مكروهه » قال الاصمعي فقلت « انت والله في قولك هذا أشعر منك في شعرك »

ومن الحكم قوله (اذا كنت في كل الامور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه)
(اذا انت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت : واي الناس تصفو مشاربه)

ومنها قوله (وخل الهوينا للضعيف ولا تكن نؤوما : فان الحزم ليس بنائم)
(وحارب اذا لم تعط الا ظُلامة شبا السيف خير من قبول المظالم)

ومنها قوله (ان الكريم ليُخفي عنك عسرته حتى تراه غنياً وهو مجهود)
(بُثَّ النوال ولا تمنعك قلته فكل ما سدَّ فقراً فهو محمود)

ومنها قوله (خليليَّ ان المال ليس بنافع اذا لم ينل منه أخ وصديق)
(وكنتُ اذا ضاقت عليَّ محلة تيممت أخرى ما عليَّ تضيق)
(وما خاب بين الله والناس عامل له في التقى او في المحامد سوق)
(ولا خاب فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيق)
(وما كنتُ الا كالزمان : فان صحا صحوتُ وان ماق الزمان اموق)

(ماق) يعني (حمق) .

ومن أمثاله (أعمى يقود بصيراً لا ابا لكمو قد ضل من كانت العميان تهديه)
ومنها (وكنت كالعير : غدا طالباً قرناً فلم يرجع باذنين)
ومنها (يسقط الطير حيث يلتقط الحب وتغشى منازل الكرماء)

ومن مبالغاته الشعرية

(في حلتي جسم فتىً ناحل لو هبت الريح به طاحا)

يقول ان الريح لوهبت عليه حملته والقت به الى بعيد وذلك لنحول جسمه . فقال له احد اصدقائه « يا ابن الفاعلة أتقول هذا وانت كالفيل عرضك أثقل من طولك !! » وقد مر في صفة بشار انه كان ضخم الجثة طويلاً . ومن شعره قوله في العذال

(ما ذا عليهم وما لهم خرسوا لو انهم في عيونهم نظروا)
(اعشق وحدي ويؤخذون به كالترك تغزو فتؤخذ الخزر)

يقول انه هو يعشق وعذاله ينغصون عيشهم ويضرون انفسهم كالترك يعيثون فساداً

في الارض ولا يقدر احد عليهم ولكن يُقبض على جيرانهم الخزر المساكين ويعاقبون ·

(ماقاله نقاد الشعر في نقد شعر بشار) : شاعر مثل بشار نظم (١٢) الف قصيدة لا يمكن ان تكون كلها في مستوىً واحد من الجودة والحسن — وهذا المتنبي وابو تمام والبحتري لا يخلو شعرهم من الساقط الرذل · والمعنى المبتذل · وكان اسحق الموصلي يزري ببشار ولا يعتد بشعره · ويقول هو كثير التخليط · وان اشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضاً · أليس هو القائل

(إنما عظمُ سليمى حِبتي قصب السكر لاعظم الجمل)
(واذا أدنيت منها بصلاً غلب المسك على ريح البصل)

قال اسحق ولو قال بشار كل شعر جيد ثم أضيف الى هذا الشعر لزيّفه . وتعلمون ان اسحق من ندماء الخلافة وجلسائها ولا يمكن ان يقول في عدوها غير هذا · والا فلعل السبب في انحطاط هذين البيتين انه قالها في سبب مخط كالبيتين اللذين قالهما في جاريته (ربابة) : (ربابة ربة البيت الخ)

ومن قول بشار

(من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج)

انتقدوا هذا البيت بانه لم يبلغ في الحسن بيت (سلم الخاسر) وكان سلم اخذ هذا المعنى وسبكه في قالب من الشعر ابلغ من قول بشار حيث قال

(من راقب الناس مات غماً وفاز باللـذة الجسور)

ولما سمع بشار هذا البيت غضب على سلم (وكان سلم يتردد عليه و يأخذ عنه) وذلك لان بشاراً علم ان بيت سلم يسهل حفظه فيعلق بالأذهان · ويميت بيته · وما زال بشار ناقماً من سلم واجداً عليه حتى تدخل اصدقاؤهما فأصلحوا بينهما ·

ومن شعر بشار قوله يهدّد الخليفة المنصور العباسي في القصيدة الميمية المشهورة

(ومروان قد دارت على رأسه الرحى وكان لما أجرمت نزر الجرائم)

يقول للمنصور لا تكن جباراً فان مروان الحمار (آخر ملوك بني أمية) هلك وجرائمه بالنسبة لجرائمك قليلة · قال نقاد شعره ان بشاراً قصّر جداً في سبك هذا المعنى والنابغة الجعدي أبرّ عليه في سبكه واحسن كل الاحسان مذ قال

(كليب لعمري كان اكثر ناصراً وأيسر جرماً منك ضرّج بالدم)

وبينا كان صلحاء الامة (الحسن البصري وواصل بن عطاء ومالك بن دينار) يطاردون بشاراً و ينكرون عليه الزندقة والخلاعة . كان أئمة النحاة (الاخفش وسيبو يه و يونس) يناقشونه الحساب على اغلاطه اللغوية . وهي في الحق قليلة جداً : من ذلك قوله في صفة السفينة

(تلاعب نينان البحار وربما رأيت نفوس القوم مزجريها تجري)

يقول : ان حيتان البحر كانت تلاعب السفينة وتجمّشها وهي تسير في عباب اليم . فعاب عليه سيبو يه كلة (النينان) جمع نون وهو الحوت وقال ان (النون) بمعنى الحوت لايجمع على (نينان) وانما على (انوان) . فكبر الامر على بشار وتهدد سيبو يه بالهجو . فخاف سيبو يه وقيل انه بكى ودخل القوم بينهم فأرضوا بشاراً . وصار سيبو يه من يومئذ يستشهد بشعره في دروسه النحوية . تطييباً لقلبه واستكفاءً لشره . فرضي بشار ولكنه مع هذا غير الكلمة فقال (تلاعب تيّار البحار) بدل (تلاعب نينان البحار) . لكن كتب اللغة تذكر كلة (نينان) في جمع نون : و كأنهم لم يبالوا اعتراض سيبو يه وحجتهم في ذلك قول سيدنا علي رضي الله عنه (يعلم سبحانه وتعالى النينان في البحار الغامرات) .

ومما آخذوا بشاراً به ايضاً قوله (غنني للغريض يا ابن قنان !) فقالوا له من هذا : (ابن قنان) ؟ لا نعرفه في المغنين . فقال لهم (وما عليكم منه ؟ ألكم عليه دين او ثأر تطالبونه به) ؟ قالوا لا وانما نريد ان نعرفه . قال (هو رجل يغني لي ولا يخرج من بيتي) فقالوا الى متى يبقى في البيت ؟ قال الى ان يموت . وما ذا يهمكم ؟

فنقاد شعره ذهبوا الى أنه لايوجد في الدنيا مغن اسمه (ابن قنان) وانما اخترعه بشار تلبيةً للقافية . ومثل ذلك ما روي عن بشار انه قال — وكان قد مات له حمار — رأيت حماري البارحة في النوم فقلت له و يلك مالك متّ ؟ قال نعم : مررتَ بي يوم كذا وكذا على باب (الاصفهاني) فرأيت ثمة أتاناً عشقتها فمت . فقلتُ له : وهل قلت فيها شعراً ؟ قال نعم وانشدني

(سيدي خذلي أتاناً عند باب الاصفهاني)
(تيمتني يوم رحنا بثناياها الحسان)

(وبُغنج ودلال سل جسمي و براني)
(ولهـا خد اسيل مثل لون الشيقران)
(فبهـا مت ولو عشـ ـت اذا طال هواني)

فقال رجل من القوم يا ابامُعاذ (وماالشيقران ؟) قال هي كلمة غريبة في لغة الحمير فاذا لقيتم حماراً فاسألوه عنها ٠

وهكذا كان لكل سؤال يوجه الى بشار جواب حاضر عنده ٠ ونادرة مهيئة لديه ٠ لكنه تورط يوماً مع احدرجال الصناعة والفن وهو (حمدان الخراط) وكان حمدان مصوراً حاذقاً في التصوير والنقش والصياغة والنحت ٠ كلفه بشار ان يصنع له جاماً فيه صور طيور ففعل وجاءه به (والجام في لغة الترك الزجاج ٠ وفي لغة الفرس القدح ٠ وعند العرب هو الكاس من فضة) ٠ فقال له بشار ماهي الصور التي على الجام قال صور طيور تطير ٠ قال كان ينبغي ان تصور فوقها طائراً من الجوارح ينقض عليها ٠ قال انك لم تقل لي ذلك ٠ قال بلى ولكنك ظننت اني اعمي لا اراها ٠ ثم تهدده بالهجاء ٠ وهنا وقف (الشعر) ازاء (التصوير) ووقف الفن ازاء الفن وجهاً لوجه ٠ وكان حمدان الفنان سوداوي الطبع كأغلب المتخصصين ٠ فقال لبشار ان هجوتني ندمت ٠ قال اي شيء تقدر ان تصنع بي ٠ قال أصورك عريان ووراءك قرد ٠٠٠ وأعرضك مع الصور الاخرى على باب داري ٠ فالتفت بشار الى القوم وقال: امزح معه وهو يأبى الا الجد ٠ وهكذا غلب التصوير الشعر: لان الشعر يريك الشيء خيالاً اما التصوير فيريكه عياناً ٠ ففي زمن العباسيين إذن كان المصورون يعرضون الصور على ابوابهم ومنها التصوير المضحك (Caricature) ٠

(البطش ببشار) : مر معنا في مطاوي الكلام السابق ان الخليفة (المهدي) لم يكن راضياً عن بشار ولا هو بالحسن الاعتقاد فيه وكان احياناً يقبله في مجلسه ٠ ويسمع مديحه ٠ لكنه ما كان يجيزه الجوائز التي يطمع فيها بشار ٠ وقد ورث (المهدي) الكره لبشار من ابيه المنصور ؛ فان بشاراً كان مناوئاً للدولة العباسية من حين ظهورها وموالياً للعلويين من آل البيت وكان القائم من آل البيت يومئذ (ابراهيم بن عبدالله بن الحسن السبط) فانحاز بشار الى ابراهيم ومدحه بقصيدته الميمية المشهورة التي خاطب في مطلعها المنصور العباسي وقال

(أبا جعفر ماطول عيش بدائم ولا سالم عما قليـل بسالم)

فلما ظفر المنصور بابراهيم العلوي وقتله خاف بشار على نفسه وحول القصيدة الى مدح المنصور وجعل الخطاب الاول في (ابي مسلم الخراساني) عدو المنصور فقال :

(ابا مسلم ماطول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم)

لكن هذا التلاعب ان قبله المنصور في الظاهر لم يقبله في الباطن ولاسيما الدلائل الكثيرة التي كانت تدل على ان بشاراً مقيم على ولائه لآل البيت · فلما تولى (المهدي) الخلافة أراد بشار التقرب اليه فاجتهد كثيراً فلم يفلح ثم استهتر بشار في هجاء الناس والتعرض للحرم · فكانوا يسعون فيه الى (المهدي) و يزينون له البطش به وانه ما دام حياً فهو آفة على أخلاق الشبان والشابات · وليس هذا فقط بل كانوا ينقلون اليه اخباراً من كفره وزندقته · من ذلك انه فضّل ابليس على آدم بتفضيله النار على التراب منذ قال (الارض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار)

كان يبلغ الخليفة كل ذلك فكان يُعرض عنه ويصبر عليه ثم لما يئس بشار من الخليفة تعرّض له بالهجو ثم لوزيره (يعقوب بن داود) · على مبدإه الذي كان لقنه اباه : (ليس على الاعمى حرج) · وكان يعقوب على مذهب سيده في اطّراح بشار · والنفرة منه · حتى قال بشار في الوزير بيتيه المشهورين

(بني أميــة هبوا طال نومكموا ان الخليفــة يعقوب بن داود)

(ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا خليفــة الله بين الزق والعود)

وقد حقق المؤرخون ان المهدي من أطهر ملوك بني العباس نفساً واحسنهم سيرة · وخاف الوزير يعقوب ان يُكثر بشار من مثل هذا الشعر و يكرر الضرب على هذه النغمة فبادر الى الخليفة واخبره بهجو بشار له اي للمهدي نفسه · وانه قال فيه قولاً لا يمكن النطق به · واخيراً ألح عليه الخليفة · فأسمعه البيتين :

(خليفــة يُزني ... و يلعب بالدبّوق والصولجان) الخ

فكاد ينشق الخليفة غيظاً · لكنه مع هذا كظم غيظه · واحترم حرية القول (كما نقول في اصطلاح عصرنا الحاضر) · ثم اتفق للخليفة ان انحدر في دجلة فلما بلغ البطيحة سمع أذاناً وقت الضحى · فسأل ماالخبر ؟ قيل له (بشار يؤذن وهو سكران) فأمر باحضاره فأحضر الى ظهر (الحراقة) اي السفينة وامر بجلده فجلد سبعين سوطاً ·

وكان كلما ضُرب سوطاً قال (حسْ حسْ) وهي كلمة تقال عند لذع الوجع وحرق النار. فقال بعض الحاضرين انظر ياامير المؤمنين يقول(حسْ حسْ) ولا يقول (باسم الله) فقال له بشار (ويلك أثريدة هي حتى اقول باسم الله) فقال آخر (ولما ذا لاتقول الحمد لله ؟؟) قال (أونعمة هي حتى أحمد الله عليها ؟) . ثم بعد الضرب تركوه في البطيحة مغمىً عليه وهو الى الموت أقرب منه الى الحياة . فجاء اهله وحملوه الى البصرة. فلما علم اهلها خبره لم يبق شريف منهم الا بعث اليه بالفرش والكسوة والهدايا . لكن لما مات ونعاه الناعون تباشر عامتهم . وهنأ بعضهم بعضاً بموته . وحمدوا الله . وتصدقوا. كل ذلك لما مُنُوا به من شره. وأذى لسانه . ولما خرجوا في جنازته لم يتبعها احد سوى أمة لبشار سوداء . سندية عجماء . فكانت تصيح وراءه (واسيداه واسيداه) .

ولم يكن هم للخليفة بعد موت بشار الا تفتيش منزله والبحث في اوراقه . فوجدوا طوماراً فيه ما يأتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . اني أردت هجاء آل سليمان بن علي لبخلهم فذكرت قرابتهم من رسول الله فأمسكت عنهم إجلالاً له صلى الله عليه وسلم » .

فلما قرأ الخليفة قوله بكى وندم على قتله . وقال لاجزى الله يعقوب بن داود (يعني وزيره) خيراً فأنه لما هجاه لفق عندي شهوداً على انه زنديق فقتلته .

لكن ان برأنا بشاراً من الزندقة بناء على هذه الرواية . فلا يمكن ان نبرءه من تهمة القذع والفحش والسباب . وان قلنا ان اعداءه وضعوا على لسانه البيت والبيتين فيبعد ان يضعوا عليه القصائد الطويلة التي شحنت بها كتب الأدب . وقد تضمنت من صفات النساء وأخبار الفسق والفساق ما يفسد كل أمة فشا فيها مثل هذا القول . وليس هذا فقط بل كان بشار أحياناً يذيع بين الشبان والشابات من شعره قواعد عامة يعلمهم فيها الخنا والفجور . من ذلك البيتان المشهوران اللذان بلغا المهدي وكانا هما فيما زعموا السبب الحقيقي في قتله .

ذكرنا هذا لكم ايها السادة لتعلموا ان المهدي لم يقدم على ما أقدم عليه من قتل بشار الا وهو على بينة من امره واستحقاقه للقتل .

(منزلة بشار بين الشعراء) : تبين لنا مما رويناه من شعر بشار وشهادة علماء

الادب فيه ان الرجل كان متمكناً من اللغة العربية : فكان لا يستعمل في شعره من الفاظها وتراكيبها سوى الصحيح الفصيح ·

هذا شعره من حيث الديباجة اللفظية · اما شعره من حيث المعاني · فهو كما قال ابو عبيدة : يقارب سامعيه حتى لا يخفى عليهم ما يقوله في شعره : يتناول المعنى البعيد فيختار له من الأساليب السهل العذب · ومن الألفاظ اللؤلؤ الرطب · ولذلك راج شعره بين العامة والنساء · كما كانت تستجيده طائفة الادباء والنبلاء · وهذه هي البلاغة كما عرفها بعضهم · وكان بشار ينوّع شعره و يتدرج فيه : فاذا داعب خادم بيته أسفّ الى حضيض الابتذال · ثم قال

(ربابة ربة البيت نصب الخل في الزيت)

واذا خاطب الملأ من ذوي الكبر والجبروت حلّق في سماء الخيال ثم قال

(اذا الملك الجبار صعّر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه)

وهذه مزية من مزايا شعره فاق بها رصفاءه المعاصرين · واخذ راية الشعر دونهم باليمين ·

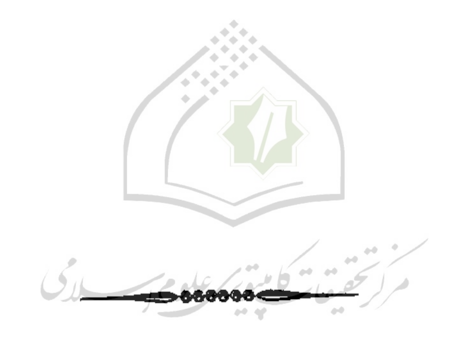
اما اذا أريد المقارنة بين بشار وبين من تقدمه وتأخر عنه من شعراء العرب فيقال فيهم بوجه عام : ان شاعر كل وقت انما يصوغ قوله من قلوب اهل زمنه · ويتحت معانيه من عقليتهم · و يقتبس مواضيع شعره من أحوال اجتماعهم · فدرجة شاعر ما ارتقاء وانحطاطاً تابعة لحالة اهل زمنه ارتقاءً وانحطاطاً : وانما نقول هذا في نوابغ شعراء كل زمان لا في الشعارير والمتشاعرين · فطبقة جرير ثم طبقة بشار ثم طبقة المتنبي — وان سمام علماء اللغة والادب مولدين ومحدثين لم يريدوا الحط منهم وانما ارادوا تحديد صلاحيتهم للاستشاد بقولهم في المسائل اللغوية · اما من حيث الشاعرية · واتساع الخيال في المعاني · والتفنن في الاساليب والمباني · فلا ريب ان طبقة المتنبي وان تأخرت في الزمن متقدمة على طبقة بشار · وطبقة بشار متقدمة على طبقة جرير · وطبقة جرير متقدمة على طبقة امرء القيس — تبعاً لترتيب طبقات أزمنتهم في الحضارة والعلم واتساع الفكر وتأثير فنون الصناعة ومناحي الترف · اعتبر ذلك في قول ابن الرومي الذي سمع قول ابن المعتز الخليفة يصف الهلال فوقه سحابة سوداء·

(وكأنما هو زورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر)

فقال (وبلاه ومن اين في ماعون بيتي مثل هذا الزورق حتى أشبه الهلال به) . أشار بذلك الى ان أدوات الترف والزينة في البيت توحي الى الشاعر الذي يراها معاني لا تخطر ببال ذاك الذي لا يراها .

هذا في شاعرين عاشا في زمن واحد وبلد واحد فكيف بهما اذا تباعد الزمانان واختلفت الحضارتان . ويمكن ان نستنتج من هذا ان شعراء زماننا الحاضر وشعراء العصور المقبلة هم بالطبع أشعر ممن تقدمهم اعتباراً بما ذكرنا ولأن شعرهم انما نحت من عقلية من يخاطبونهم . فلا جرم ان يكون شعرهم أشد تأثيراً في نفوس هؤلاء المخاطبين . ولا يخفى أن مقياس بلاغة الشعر انما هو التأثير .

« المغربي »



الفيلسوف الفارسي الكبير

صدر الدين الشيرازي

— ٢ —

(روح عصر صدرالدين) : اذا اردنا ان نصوّر شخصية رجل حكيم مفكر ظهر بآراء جديدة وافكار نيرة في محيط مظلم جوّه بسحب الجمود والعصبية لا بد ان نصور عصره الذي عاش فيه ليحيط القارئ علماً بشخصية ذلك الرجل البارزة .

ان من درس روح العصر الذي ظهر فيه صدر الدين في المحيط الفارسي يتمثل أمامه روحان روح التصوف البحث وتأويل نصوص الشريعة وروح الجمود على ظواهر الكتاب والسنة والنضال باشكاله كان بين الروحين يشتد آونة و يضعف أخرى . ومؤلفات الفريقين مشحونة بطعن كلّ على الآخر ولحدوث كل من الروحين وسريانها سبب اصلي نبينه لنصور به روح عصر الفيلسوف .

ولا نعتمد فيمانقول الآتي على كلمات الثقات المشهورين من العلماء الذين عاشوا في فارس في هذا العصر .

اما سبب حدوث التصوف في فارس وانتشاره فيه هو ان التاريخ يدلنا على ان مذهب الباطنية وتعاليم عبد الله وابيه ميمون بن ديصان طافت في كثير من الارجاء الاسلامية فصادفت في فارس تربة صالحة للنموّ لان الباطنية تظاهرت بمذهب التشيع وفارس كانت معقل الشيعة والباطنية تقرب من التصوف الاسلامي اذ هما يلتقيان في نقطة تأويل نصوص الشريعة وتقريبها من العقل والقول بان لها باطناً غير ظاهرها اضف الى ذلك ما كان في افكار الفارسيين من الانس بمذاهب الفلسفتين الاغريقية والهندية اللتين يصح ان يعتبر التصوف الاسلامي وليدهما .

ومعلوم ان المذاهب على انواعها فلسفية كانت ام ادبية ام سياسية اذا وجد لها ناصر

ومعاضد من المسيطرين على الامة التي تمذهبت بها تسرع في خطاها والتصوف الفارسي من المذاهب التي هيأ لها الزمان ناصراً ومعاضداً قوياً فان الدولة الصفوية التي عاش في ظلها صدرالدين ظهرت من ناحية التصوف فاول الملوك الصفويين ومؤسس دولتهم كان صوفياً بحتاً وجده الشيخ صفي الدين من اعظم اقطاب الصوفية وقبره في اردبيل[1] مزار لمريديه الى الحال وعليه ابنية فخمة .

خرج الشاه اسماعيل الصفوي من جيلان بلفيف من الصوفية المريدين له ولجده الشيخ صفي الدين في سنة ٩٠٦ هـ وهو ابن اربعة عشر سنة وفتح بلاد اذربايجان فروح التصوف كانت سارية في ملوك ايران الصفويين المعاصرين لصدرالدين قال بعض مورخي الافرنج[2] ان تصوف الشيخ صفي الدين هو الذي حفظ كيان الدولة الصفوية نحو مائتي سنة ولولا ان السياسة الصفوية في جنبها كانت تدعو الى اقوية المذهب المخالف له اي مذهب الجمود الذي كان يحسب نفسه من الدين لكان التصوف اكثر شيوعاً مما كان عليه وذلك ان سلطان الدين كان قوياً والمسيطرون والملوك مضطرون الى مجاراة تيار الفكر الشائع وطاعة صوت الجمهور ولو كان على خلاف ما يرغبون وما يضمرون .

قال الشيخ يوسف البحراني المتوفى سنة ١١٨٦ وهو من كبار محدثي الشيعة في كتابه لؤلؤ البحرين في شأن محسن الفيض تلميذ صدر الدين وخريجه الكبير ما نصه :

لاشتهار مذهب الصوفية في ديار العجم وميلهم اليه بل غلوّهم فيه صارت له (اي للمحسن) المرتبة العليا في زمانه والغاية القصوى في أوانه وفاق الناس جميع أقرانه وقول هذا المحدّث الثقة الجليل يدل على اشتهار مذهب التصوف وكثرة انصاره في العصر الذي عاش فيه صدر الدين .

وكان في جنب هذه الروح الجمود بادياً في طائفة من اهل الحديث والفقه وكانوا متمسكين بظواهر الكتاب والسنة وكان سببه شدة تمسكهم بالدين واستيلاء سلطانه على نفوسهم وبُعدهم عن اغراضه واسراره .

---

(١) اردبيل مدينة كبيرة في فسيح من الارض واقعة على (٢١٠) كيلومترات من شرقي تبريز في شمالي فارس . (٢) وهو سرجان ملكم في تاريخه الذي وضعه لايران .

وكانوا يرون اتباع العقل المحض والمبادي الفلسفية مروقاً عن الدين وسلوكاً لسبيل الضلين .

والقاريء يجد في ضمن هذه الرسالة كلمات للعلماء المشهورين من هذه الطائفة كالسيد نعمة الله التستري والشيخ يوسف السابق الذكر في شأن الفلسفة والتصوف وشأن صدر الدين يقول الشيخ يوسف في ذيل كلامه السابق كان التصوف شائعاً في عصر (المحسن الفيض) حتى جاء على اثره شيخنا المجلسي [1] وسعى غاية السعي في سد تلك الشقاشق الفاغرة واطفاء تلك البدع البائرة [2] وهذا الكلام يمثل للقاريء شقة الخلاف بين المذهبين قلنا ان التصوف كان شائعاً في عصر صدر الدين الا ان شيوعه كان نسبياً وكانت الغلبة للجمود لان السياسة كما قلنا كانت تدعو الى تقوية عضد الدين ورجاله .

لان الصفويين اسسوا دولتهم في ظل الدين والتشيع وموالاة اهل بيت النبي عليهم السلام وكان نصر الفقهاء والمحدثين المتمسكين بالظواهر سبباً لحفظ عرشهم ودفع كيد خصومهم ولكن كانت في ضمن هذا النضال للتصوف حركة معنوية صح ان نقول انه كان فائقاً على مظاهر الجمود و يشهد به ان جماعة من العلماء المشهورين بالزعامة الدينية والفقهاء كانوا من انصاره فان الشيخ بهاء الدين العاملي المتوفى سنة ١٠٣١ او ١٠٣٠ الذي اعتمد عليه الشاه عباس الاول الصفوي وفوّض اليه منصب شيخ الاسلام في ايران كما ذكر كان ممن ينصر التصوف وقلبه مطمئن بصحته . و كلماته يلوح منها ذلك فهذا دليل على ستيلاء روح التصوف على روح هذا الشيخ المحدّث الفقيه الذي كان يمثل بظاهره فريق

---

(١) هو محمد باقر بن محمد تقي بن مقصود علي المجلسي الاصبهاني من اعظم محدثي الشيعة ورؤسائهم الروحيين في عصر الصفويين عاصر الشاه سليمان والشاه سلطان حسين الصفويين وكان هذا المحدث الكبير ممن يتصدى لشؤون السياسة و يستشيره السلطان في تدبير الملك وتنظيم ايران وله آثار علمية جليلة كثيرة منها كتابه الكبير (بحار الانوار) في أحاديث الائمة الاطهار في ٢٤ مجلداً كبيراً وفي بعض مجلداته بحث عن علوم متنوعة من الفلك والفلسفة والكلام ولاسيما في جزئه المسمى (بالسماء والعالم) توفي سنة ١١١١ ه ومجلس كما قيل قرية من قرى اصبهان . (٢) وفي نسخة البائرة .

اهل الجمود وصنف رسالة في وحدة الوجود وبيان مذاهب الصوفية وقال فيها ما نصه :
ولا شك انهم اي الصوفية من اولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة والذين آمنوا وكانوا يتقون . طبعت الرسالة في القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ .

ويدل عليه كلام صاحب لؤلؤ يقول في كتابه المذكور ربما طعن عليه القول بالتصوف لما يتراءى من بعض كلماته واشعاره في هذا العصر الذي تلبّد جوّه بسحب الجمود عاش صدر الدين وروح فلسفته التصوف واصول الفلسفتين الاغريقية والفارسية الفهلوية وتمكن من وضع تآليفه الكثيرة الجليلة التي أخلدت له الذكر الجميل ولم يصبه ما اصاب الفلاسفة الاحرار من الاضطهاد والزجر والقتل .

(فتوى رجال الدين بكفره) : أفتى جماعة من رجال الدين والفقه المتمسكين بظواهر الشريعة بكفره واخذوا عليه أموراً :

(الاول) انه ذهب الى مذهب وحدة الوجود كما صرّح به في كتبه وفلسفته حتى في تفسيره نقل قول محيي الدين بن عربي ان فرعون مات مؤمناً موحداً واستحسن هذا الكلام بقوله هذا كلام يشم منه رائحة التحقيق .

(الثاني) انه ذهب في شرحه لكتاب الكافي وفي تفسيره لسورة البقرة وفي كتابه الكبير (الاسفار) الى انقطاع العذاب عن اهله في الآخرة وانكر الخلود في النار وهو خلاف ما علم بضرورة من الدين .

(الثالث) ذكر في الاسفار في بحث العشق ان عشق الغلمان وصور الحسان عشق مجازي وهو قنطرة الى عشق الاله وفيه روح المذهب اليانثيسمي .

(الرابع) انه ذهب الى المعاد الجسماني بما لا يلائم ظاهر الشريعة ومذهبه في المعاد كمذهب الشاعر الفيلسوف (عمر الخيام) في رباعيه المشهور :

كردون نكرى زعم فرسودهٔ ماست جيجون اثري زچشم پالوده ماست
دوزخ شرري زرنج بيهودهٔ ماست فردوس دمي زوقت اسوده ماست

وجد هذا الرباعي بخطه في ظهر بعض تفاسيره ومعناه قريب من مذهب الخيام .

اى انكه زاتش درون ميسوزى وز نار جحيم خشم ازن ميسوزى

كر زانكه نمونه ردوزخ خواهى بنكر بدرون خود كه چون ميسوزى

كر زانكه نمونه زدوزخ خواهى بنگر زدرون خود كه چون ميسوزى

ولقد أجاد الشاعر الكبير محمد السباعي بابراز هذا المعنى الفلسفي في العربية بقوله :

اني ارسلت روحي آنفاً في دياجي الغيب كيما اكشفا

غامضاً من عالم الخلد اختفى فانثنى روحي ونبأ انما

انا فردوس صفاً نار انتقام

وجد هذا الرباعي بخطه على ظهر تفسيره لسورة الحديد بين رباعيات كلها بخطه .

اي بو العجب از بسكه ترابو العجست وهم همه عشاق جهان از توغست

مسكين دل من ضعيف وعشق تو قويست بيچاره ضعيف كش قوى بايدز يست

(تأثير الفلسفة الاغريقية في نفسه) : منذ ظهر الانسان في الوجود خضعت نفسه بقوى العالم مادية كانت او ادبية وقوة التعليم من اقوى المؤثرات في النفس الانسانية ولا سيما اذا كانت القوة المؤثرة مما تقبله النفس بفطرتها أثرت الفلسفة الاغريقية وتعليم ارسطو واتباعه في نفسه اثراً عميقاً ذكر في اول (الاسفار) اني قد صرفت قوتي في سالف الزمان منذ اول الحداثة والريان في الفلسفة الالهية بمقدار ما اوتيت من المقدور وبلغ اليه قسطي من السعي الموفور واقتفيت آثار الحكماء السالفين والفضلاء اللاحقين منقلباً في نتائج خواطرهم وانظارهم مستفيداً من ابكار ضمائرهم وأسرارهم وحصلت ما وجدته في كتاب اليونانيين والرؤساء المعلمين تحصيلاً يختار اللباب من كل باب .

وقال في بحثه عن حدوث العالم واعلم ان أساطين الحكمة المعتبرة عند طائفة ثمانية ثلاثة من الملطيين (ثالس وانكسيمانس واغاذيمون) ومن اليونانيين خمسة (انباذقلس وفيثاغورث وسقراط وافلاطون وارسطو) قدس الله نفوسهم واشركنا الله في صالح دعائهم وبركتهم فلقد اشرقت أنوار الحكمة في العالم بسببهم وانتشرت العلوم الربوبية في القلوب بسعيهم وكل هؤلاء كانوا حكماء زهاداً عباداً متألهين معرضين عن الدنيا مقبلين على الآخرة فهؤلاء يسمون بالحكمة المطلقة ثم لم يسم احد بعد هؤلاء حكيماً بل كل واحد منهم ينسب الى صناعة كبقراط الطبيب وغيره .

(منابع افكار صدر الدين وفلسفته) : نجد فلسفة صدر الدين تستمد من منابع

كثيرة أهمها آراء اليونانيين ولاسيما آراء ارسطو وتلميذه ابن سينا وافكار محيي الدين بن عربي الصوفي وتعاليم الدين الاسلامي المستخرجة من القرآن الحكيم والسنة النبوية فجدير ان نشير الى هذه المنابع الاربعة على سبيل الايجاز ليعلم وجهة فلسفته .

(١ — آراء ارسطو) : فهي آراء وافكار نراها في كتبه الواصلة الينا بواسطة نقلة العصر العباسي الزاهر وفي كتب اليونان والعرب اهمها اثبات الحركة الطبيعية الازلية واثبات احتياج المتحرك بمحرك يتحرك بمحرك آخر حتى ينتهي الى محرك لا يتحرك بآخر فهو جوهر وفعل معاً فهذا المحرك الثابت هو الله مصدر الحركة الابدية التي تتحرك بعلة غائية اي بطريق الجذب نحو العقل الاعظم والشوق اليه كما يستميلنا الخير ويستهوينا الشيء الجميل بدون دخل لهما في ذلك وعلى هذا المثال ينجذب عالما الارواح والاجسام نحو الله بدافع ذاتي .

وهو يرى ان المادة قديمة وان المحرك الاول اي الله لم يخلق المادة بل نظمها وان الله جوهر روحاني يتجلى فيه العقل والحياة باتم مظاهرهما ويتمتع ابداً بالسعادة الكاملة ولانعماكه بمشاهدة ذاته لا يلتفت الى العالم .

(٢ — آراء ابن سينا) : فهي على ما يظهر انها آراء فلاسفة اليونان وافكار ارسطو وتعاليم مدرسة (اميتوس سكاس) التي يسميها العرب بمدرسة الاسكندرانيين وتعاليم تلميذه .

(افلوطين) الذي يسميها الشهرستاني بالشيخ اليوناني وهو منظم مذهب أستاذه وكان من آراء هذا الفيلسوف اليوناني فيما وراء الطبيعة (متافيزكا) ان هذا العالم كثير الظواهر دائم التغير وهو لم يوجد بنفسه بل لابد لوجوده من علة سابقة عليه هي السبب في وجوده وهذا الذي صدر عنه العالم واحد غير متعدد لاتدركه العقول ولاتصل الى كنهه الافكار ولا يحدّه حدّ وهو أزلي قائم بنفسه فوق المادة وفوق الروح وفوق العالم الروحاني خالق الخلق ولم يحلّ فيما خلق بل ظل قائماً بنفسه مسيطراً على خلقه ليس ذاتاً ولابس صفة هو الارادة المطلقة لايخرج شيء عن ارادته هو علة العلل ولا علة له وهو في كل مكان ولا مكان له ويحث انه كيف نشأ عنه العالم وكيف صدر هذا العالم المركب المتغير من البسيط الذي لا يلحقه تغير . كأن هذا العالم غير موجود ثم وجد كيف يصدر هذا العالم

الفاني من الله غير الفاني . هل صدر هذا العالم من الصانع عن روية وتفكير او من غير روية ولمَ وجد الشر في العالم ؟ ما النفس واين كانت قبل حلولها بالبدن ؟ واين تكون بعد فراقه ؟ .

وهذه المسائل وأشباهها التي بحث عنها افلوطين هي مباحث شغلت حيزاً من افكار ابن سينا بعد ان ورثها من المعتزلة والصوفية وجمعية إخوان الصفا . كما هي المسائل التي درسها صدر الدين . زينها للناظرين في القرن الحادي عشر وكانت الشرائع السماوية والقوانين الادبية تشغل مكاناً فسيحاً في مبادئ ابن سينا واليك نص قوله في النبوة يقول :

يوجد رجال ذو طبيعة طاهرة اكتسبت نفوسهم بالطهر وبتعلقها بقوانين العالم العقلي لذا هم ينالون الالهام ويوحي اليهم العقل المؤثر في سائر الشؤون ويوجد غيرهم لا حاجة لهم الى الدرس للاتصال بالعقل المؤثر لانهم يعلمون كل شيء بدون واسطة . هؤلاء هم اصحاب العقل المقدّس وهذا العقل لمن السمو بحيث لا يمكن لكل البشر ان ينالهم منه نصيب وهذا القول صريح في انه يقصد باصحاب العقل المقدّس الانبياء الذين يحظون بالوحي الرباني كما انه اعتراف منه باصل كبير من اصول الاديان وهذه النزعة الدينية أثرت في نفس صدر الدين وصرّح في كثير من كتبه بمثل هذا الرأي الفلسفي الديني وبذلك نعلم ان ابن سينا بعيد عما نسبه اليه (الكونت دوغوبينو) في كتابه المذاهب والفلسفة في آسيا الوسطى بقوله ان ابن سينا نهض بل خرج على ما كان يعلمه الدين منذ اربعمائة سنة وانه هدم من الاسلام ومن معتقده جانباً عظيماً نعم انه كان ذا نفوذ كبير على أفكار الملوك والامراء فجهر بآرائه الفلسفية بحرية تامة لكنه احترم في جنبها الدين الاسلامي وكان حقاً معلماً كبيراً للفلسفة في ايران الى قدوم جنكيز خان المغولي .

(٣ — افكار محيي الدين بن عربي) : اكثر افكار هذا الامام الصوفي اختفت علينا وراء حجاب من الرموز والالغاز فما عرفناه من افكاره وحصل لنا اليقين به هو انه كان ممن يعتقد بوحدة الوجود حتى قال انه كفر النصارى ليس بقولهم ان المسيح هو الله بل كفرهم بقولهم انه ابن الله وكأنه كان يؤمن بنظريات اشور الحلولية على ان له آراء في الاخلاق الفاضلة والتي سلك سبيلها الصوفيون كالحب والسكر والتوبة والمجاهدة والخلوة والتقوى ومقامي الخوف والرجاء ومقام الفكر والذكر وأسرارهما وله بحث في النبوة وأسرارها .

وكان محيي الدين يعد من قادة التصوف وحاملي لوائه ومعلميه في ايران كابن سينا الى زمن جنكيزخان المغولي يجله صدر الدين غاية التبجيل ويقرن اسمه بكلمات التجليل كالعالم الرباني والعارف الكامل وأشباهها واقتبس صدر الدين آراءه وأوردها ضمن الكلمات الفلسفية ٠

(٤ — الدين الاسلامي) : اما الدين الاسلامي فالقرآن باصوله العالية وسننه السامية (مرآة) تعاليم هذا الدين الجلي آخى بين العلم والدين وارشد الى توحيد الحق المهيمن وتنزيهه عن كل نقص وشرك واعلن باسم الله واعلاه في وسط كان تعبد الاوثان ورفض كل باطل وحطم كل وثن وصنم ٠ وهو النور الذي ألقى أشعته البيضاء في مدة يسيرة بين الاندلس والهند ٠ ولا زال سراجاً يضيء العالم في قرون طويلة ولكن النزاع في الخلافة في الصدر الاول الذي امتد الى القرون المتأخرة من ناحية وتشابه بعض آيات القرآن الذي دعا المفكرين الى النظر فيها من ناحية أخرى كانا من الاسباب التي اوجدت الفرق واحدثت الجدل ٠

فظهر هذا الدين بمظهر غير مظهره الذي تجلى به في الصدر الاول ظهر منحرفاً عن اصله السامي فبهذه الصورة تلقاه صدر الدين ٠

(وقوف حركة الفلسفة في ايران) : كانت لفلسفة ابن سينا حركة قوية في ايران الى ان هجم المغول في القرن السابع الهجري فوقفت هذه الحركة لان الغزاة كانوا يرمون الى الترتيب السياسي وتنظيمه ولم يكن لهم اهتمام بالفلسفة لان غاية هؤلاء الفاتحين كانت ان ينشئوا نظاماً مدنياً قوياً بكل ما يمكن من الوسائل ولما صبأوا الى الاسلام رأوا من المعقول ان يسندوا كل الاسناد هذا الدين فلم يوافقوا على نشر فلسفة ابن سينا ومن قال بمذهبه وان هم اهتموا بنشر الفنون والصنائع ٠

(ظهور الدولة الصفوية) : قلنا فيما سبق ان الحركة الفلسفية وقفت حينما هجم المغول لان كبير اهتمامهم كان بنشر الفنون والصنائع وقليلاً كانوا يعتنون بالعلم والأدب ٠

وسارت الامور هذا السير الى ان تسنم اول الصفويين غارب العرش وكان صوفياً بحتاً ولكنه لما رأى الشيعية مذهباً خاصاً بالبلاد الفارسية اولع بها هو وخلفاؤه ولعاً يدل على

ذكاء فانهم روجوا نموها وتبسطها بكل ما أوتوا من السطوة والسلطنة ولم يعن بفلسفة ابن سينا ·

ولكن الفلسفة كانت تتحرك وتبدي اشارات الحياة لان ارجاع المسببات الى اسبابها والفحص عن عللها مما يطلبه الطبع البشري ·

(طريقة التدريس في آسية) : ولما كان الدرس في العلوم العالية في آسية تتلقى مشافهة وكان الفلاسفة القائلون بمذهب ابن سينا متفرقين وهم نفر قليل كثيرو الخوف امام علماء الدين اضطر صدر الدين ان يخلي عدة سنين في جبال (قم) متنقلاً في رحلاته في فارس لاقطاً من أفواه الحكماء جميع الشروح التي نشأت من نفوس اصحابها بعد الخبرة والثقة بنفوسهم وبدأ بنفسه يعلم في المدن التي يمر بها ولما لم يكن له منافسون من جهة الفصاحة ولا من جهة التأنق في العبارة ولا من جهة سهولة التعبير كان سامعوه يفرحون بما يلقيه عليهم ويقتنونه بكل حرص وكانوا كثيرين ثم كان ينتقي منهم تلاميذ ذي فضل ممتاز ·

(خوفه من رجال الدين) : وكان صدر الدين نفسه ايضاً يخاف رجال الدين المتمسكين بالظواهر ولهذا كان يسعى جهده ان لا يثير في نفوسهم كامن الريبة فكان موضوع بحوثه اموراً مكنية يثبتها بالادلة الصريحة ولو لم يفعل ذلك لعرض نفسه لشكاياتهم وتشديدهم عليه تشديدات لا نهاية لها فيخاطر بالعمل عينه بمستقبل اصلاح الفلسفة الذي كان يفكر به فوفق بين فكره وبين مقتضيات الاحوال ولجأ الى الوسيلة العظمى وسيلة التقية والكتمان ·

وكان اذا هبط مدينة يحرص على زيارة مجتهديها او علمائها ويجلس في آخر الناس وكان يطيل السكوت واذا تكلم نطق بكل هدوء وسكينة مستمعاً كل كلمة تخرج من أفواه اولئك الأجلة وكان اذا سئل عن معارفه لا ينطق الا بالآراء المدونة في أسفار المذهب الشيعي المحض ولا يشير ابداً الى انه يُعنى بالفلسفة وبعد ايام قليلة من رؤية المجتهدين والعلماء كانوا يدعونه بانفسهم الى ان يدرس تدريساً علنياً وللحال كان يلبي دعوتهم ·

(طريقه في نشر فلسفته) : وكان يجعل عنوان درسه من ابواب الفقه اولاً ثم يزيد المسألة تدقيقاً في وجوب اتباع الاوامر والنواهي والفرائض على ما يفعله امهر العلماء في نظرياتهم فكان هذا العمل يحببه في قلوب العلماء ويزيده اعتباراً · واذا كان يبحث

في باب الوضوء او الصلوة كان ينتقل منها الى أسرارها ومنها الى نواميس الوحي ومنها الى التوحيد وكان هنالك يجد مجالاً لاظهار آرائه الفلسفية وابراز شخصيته الكبيرة بآيات من الحذق والمهارة والاستدراك وكشف الاسرار للتلاميذ المتقدمين .

وكان في القاء دروسه يسرد عبارات ذات معنيين راقية تتراءى بوجهين لا يفهمها من تلاميذه الا الذين رسخت أقدامهم في الاستنتاج ثم يغطي كل هذه الأقوال بغشاء رقيق من العبارات الدينية التي تؤيد دينه وتظهر احترامه لمبادي الدين .

(بثه فلسفة ابن سينا) : وكان ينشر مذهب ابن سينا في الطبقة المذورة كلها واذا كان يحرص على اخفاء مذهبه في كلامه فكان اخفاؤه له فيما يكتبه اقوى واعظم والوقوف على حقيقة مذهبه الفلسفي صعب الا لمن اتصل سند درسه الى تلامذته الذين تلقوه عن نفسه ولمن وقف على اصطلاحاته الفلسفية وسند آرائه غير مقطوع في هذا العصر ولكن قلّ عدد تلامذته اليوم وكان في عصر ناصر الدين شاه القاجار جماعة من كبار تلامذته اي الذين كانوا ينقلون جيلاً بعد جيل عن معلمهم الاكبر من امر فكره و بايديهم مقاليد العبارات التي كان يتخذها لكي لا يعبر عن افكاره صريحاً .

(شخصيته الفلسفية) : يقول (الكونت دوغوبينو) ان صدر الدين لم يكن منشئ فلسفة جديدة بل هو أعاد الى فلسفة ابن سينا ضرمها واضاءها في مصباح جديد والحق انه اظهر شخصيته من ناحية مذهبه الفلسفي واتى برأي جديد مستقل في بعض مسائل فلسفية وخالف ابن سينا في مسائل جمة وسنشير الى بعضها ضمن هذه الرسالة . ولا شك انه كان مصلحاً للفلسفة الآسيوية وهو الذي البسها ثوباً يقبله كل من ينظر اليهـا فقبلها من كان في عهده واعجب بنظرياته العارفون .

ولا غرو فانه عاش في عهد غير عهد ابن سينا وفي وسط غير وسطه .

بدرسنا شخصية هذا الفيلسوف نراه انه أخلد اثر العلم اذ نفخ في رميم مذهب ابن سينا واعاد اليه شبابه في العصر الذي عاش فيه والبسه حلة مكنته من ان ينتشر في جميع مدارس ايران واستطاع ان يفسح لمذهبه الفلسفي موطناً بجانب تعاليم الدين ولولا خدمته العلمية لكان نجم الفلسفة يغرب وراء ظلمات الغزوات المغولية . وعشاق الفلسفة مدينون لهذا الفيلسوف الكبير . وحقاً يعدّ معلماً كبيراً للفلسفة في ايران بعد ابن سينا الى الآن .

(مذهبه في أزلية العالم المادي وحدوثه) : افترق الدين والفلسفة في مسألة قدم العالم وحدوثه فبالضرورة ينتهي البحث الى أزلية (المادة وحدوثها) قدماً زمانياً بصرح الدين بظاهره بالحدوث وان يد الباري ابدعت المادة من العدم والفلسفة تجهر بالقدم ٠

وقف صدر الدين امام هذه المسألة العويصة وقوف المتحير ورأى نفسه بين تجاذب قوتي الدين والفلسفة ٠

يقول في اول رسالته في الحدوث (١) هذه المسألة تحيرت فيها افهام الفحول لغموضها والناس فيها بين مقلد كالجبارى ومجادل كالسكارى فمن المدققين من اعترف بالعجز عن اثبات الحدوث للعالم بالبرهان قائلاً ان العمدة في ذلك الحديث والاجماع من الملبين اذ الاول قد يحصل بالتقليد او الجدل وهما مناط الظن والتخمين والثاني لكونه بصيرة باطنية لا يحصل الا بالبرهان المنور للعقول التابع للوصول ٠ (٢) وزيف آراء المتكلمين التي تمسكوا بها في حدوث المادة ٠ وقال فمنهم من يتصدى لاثبات هذا المقصد العظيم بالأدلة المتزلزلة والاقيسة المختلة كالمتكلمين زعماً منهم ان تمهيد اصول الدين مما يحتاج الى تلك الكلمات الواهية ٠

وقال وما احسن قول (الغزالي) في حق من تصدى لنصرة قوام الدين بالامور السخيفة انه صديق جاهل ٠ وقال ايضاً ان ايراد مثلها في معرض الانتصار للشرع القويم ربما يؤدي الى خلل عظيم من حيث ان صغار العقول ربما يزعمون ان اصول الدين مبنية على هذه الدعاوي الواهية هذا كما ان بعض المحدثين نقل ان بعض الزنادقة وضع الاحاديث في فضل الباذنجان منها (كلوا الباذنجان فانها اول شجرة آمنت بالله تعالى) ٠

وقال انما وضعه ليتوسل به الى القدح في صدق النبي (ص) الذي شهد الله تعالى بصدقه وهو نفسه لم يستطع ان يخطئ مبادئ الدين القائلة بالحدوث لقوة ايمانه بالانبياء وقبول اصول تعاليمهم قبولاً فلسفياً ٠

وفند رأي ابي نصر الفارابي المدون في رسالته في الجمع بين رأي الحكيمين افلاطون وارسطو بتأويله مذهب افلاطون في الحدوث بالحدوث الذاتي والافتقار الى الصانع ٠

وقال هذا القول في الحقيقة تكذيب للانبياء من حيث لا يدري وقال ان النصوص

المأثورة عن افلاطون تمطي انه يريد بالحدوث الحدوث الزماني لا الحدوث الذاتي وقال وهذا من قصور ابي نصر في البلوغ الى شأو الأقدمين .

ونقل عن افلاطون في كتابه المعروف (بفاذا) وفي كتابه المعروف (بطيماوس) كما حكى عنه تلامذته (كأرسطو) و (طيماوس) و (شافرطوس) و (ابرقلس) انه قال ان للعالم مبدأ محدثاً ازلياً واجباً بذاته عالماً بجميع معلوماته على لغة (او نمت ؟) الأسباب الكلية كان في الازل ولم يكن في الوجود رسم ولاظل (اوظلل؟) الا تمثال عن الباري جل اسمه ربما يعبر عنه بالعنصر الاول ووجّه ايضاً رأي ارسطو بانه يريد من الحدوث الحدوث الزماني ورأى ان العلم لا يصدق حدوثها من العدم المحض وفكر فكراً عميقاً ليحل المعضلة ولماانتهى فكره الى نقطة وجد فيها سبيله للتخلص من ظلمة هذا الشك .

رأى ان الوقت قد حان ليجهر برأيه فقال ان هذه المسألة عندي في غاية الوضوح والانارة لم اجد من نفسي رخصة في كتمانها وعدم الافاضة بها على من يستأهلها ويقبلها واخذ يجهر برأيه قائلاً ان ماسوى الله حادث . ولا قديم ذاتاً وزماناً الا الله تعالى .

(نظرية الحركة في الجوهر) : سلك في أزلية المادة مسلكاً وفق به بين الدين والفلسفة وابدى نظرية سماها (الحركةالجوهرية) وهي نظرية فيغاية الغموض والابهام تكاد تشبه نظرية (انشتين) يعسر فهمها الابالامعان والتدبرالعميق في فلسفته واصطلاحه .

وهي ان العالم المادي مطلقاً لا يزال في تجدد مستمر فالمادة بجوهرها في الآن الثاني غير المادة في الآن الاول وهي متحركة دائماً بحركة جوهرية وللهيولي والصورة في كل آن تجدد مستمر .

ولتشابه الصور في الجسم البسيط ظن ان فيه صورة واحدة مستمرة لا على التجدد وليست كذلك بل هي واحدة بالحد لا بالعد لانها متجددة متعاقبة على نعت الاتصال لا بان يكون متفاصلة متجاورة ليلزم تركيب المقادير والأزمنة من غير المنقسمات وبهذه النظرية استنتج التوفيق بين الدين والفلسفة فالدين انما أراد من الحدوث تجدد المادة وحركتها حركة جوهرية وهي حادثة في كل آن وان لم يكن لها مبدأ زماني وهو يوافق العلم فلا اختلاف بينهما اذ كل منهما يقول بالحدوث بهذا المعنى والمبنى اي تجدد المادة تجدداً جوهرياً .

وكل منهما يقول بالقدم لانها لا يتصوّر عقلاً حدوثها من العدم البحت حتى يتصوّر لها مبدأ زماني وهي نتيجة عدة اصول :

منها انه فرض للوجود طرفين وهو في احد طرفيه فعلية محضة من جميع الجهات وهو الباري الموجد تعالى وبعبارة اوضح هو الوجود المطلق وفيه كل الكمال المتصور الفعلي وفي طرفه الآخر قوة محضة من جميع الجهات الا في فعلية القوة[1] وهذا يطلق على الهيولى[2] ·

فيكون في الوجود طرفان (الباري) تعالى و (الهيولى) والباري تعالى وجود اكمل من جميع الجهات فلا يحتاج الى الخروج عما كان وفي الوجود ايضاً مرتبة وسطى له الفعلية من جهة والقوة من أخرى فبالضرورة يكون فيه تركيب فذاته مركبة من شيئين احدهما بالفعل والآخر بالقوة وله من جهة القوة ان يخرج الى الفعل لغيره ·

وهذا الخروج اذا كان بالتدريج يسمى حركة والحركة هي فعل او كمال اول للشيء الذي هو بالقوة[3] ومعنى الحركة التجدد والانقضاء ·

والتجدد في المادة صفة ذاتية فلا تحتاج الى جاعل وفاعل يجعلها متجددة وهذا الرأي يفيد ان يد الباري اوجدت المادة متحركة والحركة موضوعة في طبعها والعلم الحديث ايضاً يقول ان حركة الذرات في طبعها ومنها المتحرك انما يتحرك بشيء آخر لا يكون بنفسه متحركاً فتكون حركة بالقوة فقابل الحركة امر بالقوة وفاعلها امر بالفعل والحركة على مذهبه سببها وجود فعلية القوة وللشيء ان يخرج الى الفعل لغيره ومنها ان مبدأ الحركة الطبيعة لا النفس ولا العقل[4] وقال الفاعل المباشر للحركة ليس عقلاً محضاً من

---

(١) فسر اصطلاحه في القوة بقوله هو مايقال لمبدإ التغير في شيء آخر من حيث هو شيء آخر سواء أكان فعلاً امانفعالاً ويقول ايضاً ان القوة الفعلية قد تكون مبدأ الحركة واذا كانت مبدأ للحركة لاتخلو من التجدد والتغير فهو متحرك حافظ لتغيره وقد تكون القوة وراء مالايتناهى بما لاتتناهى في الايجاد والابداع كقوة الباري وقد يكون في الانفعال بما لايتناهى كالهيولى الاولى · (٢) فسرنا الهيولى فيما سبق · (٣) وهذا تعبير آخر عن سير الوجود نحو الكمال والارتقاء اليه حسب قانون النشوء والارتقاء ·

(٤) العقل يطلق في اصطلاحه على الجوهر المجرد الروحي ·

غير واسطة لعدم تغيره ولا نفساً من حيث ذاتها العقلية بل ان كانت محركة فهي اما من حيث كونها في الجسم او من حيث تعلقها به فيكون اما طبيعة او في حكم الطبيعة ٠

والطبيعة على مذهبه سيالة الذات متجددة الحقيقة نشأت حقيقتها المتجددة بين مادة شأنها القبول والزوال وفاعل محض شأنه الافاضة والإكمال فلا يزال ينبعث عن الفاعل امر وينعدم في القابل ثم يجبره الفاعل بايراد البدل على الاتصال ٠

فهذه الاصول وصل الى النتيجة التي هي مفاد نظريته وهي ان مبدأ الحركة سواء أكانت طبيعية ام ارادية امقسرية هي الطبيعة ٠ والحركة معناها التجدد والانقضاء ومبدأ التجدد لا بد ان يكون متجدداً فالطبيعة بالضرورة متجددة بحسب الذات لان المتحرك وهي المادة لايتصوّر صدوره عن الساكن ويستحيل صدوره عن الثابت وقال وبصحة هذا الاصل اعترف الرئيس ابن سينا وغيره بان الطبيعة من جهة الثبات ليست علة الحركة وقالوا لا بد من لحوق التغير بها من الخارج ٠

والطبيعة اذا كانت متجددة فالمادة في الآن الثاني بجوهرها غير المادة في الآن الاول ٠ قال في آخر الفصل الرابع من رسالة الحدوث :

تنبيه تمثيلي ان كان كل شخص جوهري له طبيعة سيالة متجددة وله ايضاً امر ثابت مستمر نسبته اليها نسبة الروح الى الجسد فان الروح الانساني لتجردها باقية وطبيعة البدن ابداً في التجدد والسيلان والذوبان وانما هو متجدد الذات الباقية بورود الامثال والخلق لفي غفلة عنه (بل هم في لبس من خلق جديد) وكل حال الصور الطبيعية متجددة من حيث وجودها المادي الوضعي الزماني فلها كون تدريجي متبدل غير مستقرّ الذات ومن حيث وجودها العقلي وصورتها المفارقة (اوالمقارنة ؟) الافلاطونية[1] باقية ازلاً وابداً في علم الله تعالى فالاول وجود دنيوي بائد داثر لا قرار له والثاني وجود ثابت غير داثر لاستحالة ان يزول شيء من الاشياء عن علمه او بتغير علمه تعالى (ان في هذا لبلاغاً لقوم عابدين) ٠

ولما ابدى نظريته وتنبه انه تفرّد بها قال في الفصل الخامس من رسالة الحدوث اما قولك فيما سبق ان هذا إحداث مذهب لم يقل به احد من الحكماء فهو كذب وظلم

---

(١) تطلق الصورة الافلاطونية في الفلسفة اليونانية على عالم المثال والجواهر المجردة ٠

فانّ اول حكيم قال به في كتابه هو الله سبحانه وهو أصدق الحكماء فانه قال : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) وقال : (بل هم في لبس من خلق جديد) . وقوله : (والسموات مطويات بيمينه) وقوله : (على ان نبدّل أمثالكم وننشأكم فيما لا تعلمون) .

وتمسك ببعض آيات وروايات أخر تركنا ذكرها لعدم دلالتها في نظرنا ثم نقل عن ابن عربي قوله في الفصوص : ان الانسان في الترقي دائماً وهو لا يشعر بذلك للطافة الحجاب ورقته وتشابه الصور مثل قوله : (وأتوا به متشابهاً) ونقل قوله في الباب السابع والستين والمائة من الفتوحات فالوجود كله متحرك على الدوام .

(اختياره مذهب التصوف ووحدة الوجود) : هـذا الفيلسوف الآهي يدور اكثر مباحثه حول التفكر في الآله المبدع ووحدته وصفاته المعنوية من العلم والحكمة والقدرة او ان شئت فل بحث عن القوة المدبرة للكون وفلسفته تستقي من معين التصوف ووحدة الوجود معتمدة على المبادئ الاشراقية وروح فلسفة افلاطون وارسطو بادية باجلى مظاهرها فيها ويلوح للناظر في كلماته انه إبان درسه الفلسفة خاض مدة مديدة لجج المسائل اللاهوتية ووازن حجج الفلاسفة من الاشراقيين والمشائين ودرس اصول المتكلمين واصحاب الجدل وعرف انها جميعاً لا توصل الى الحق ولا تروي غليله لانها معكرة بتناقض المبادئ .

وكيف تسكن نفس رجل زكي الفؤاد وقاد الذهن بما لا ينير ظلمة المعضلات في المسائل اللاهوتية العويصة وهي تحاول ان تبلغ مرتبة الشهود والعيان من مراتب الايمان وبعد مدة طويلة لما لم يجد ضالته في درس أدلة الجدليين الذين يقول في شأن فلسفتهم اني أستغفر الله وأستعيذ عما ضيعت شطراً من عمري في طريقهم غير المستقيم لاذ بحجر التصوف وهناك وجد سكونه واطمئنانه واخذ يسعى في التوفيق بينه وبين الشريعة بتأويل نصوصها وتوجيهها اليه .

جرت عادة الباحثين في المسائل اللاهوتية الا الصوفيين ان يضعوا باباً في البحث عن الموجد للكون .

ويذكروا فيها أدلة يستمد بعضها من ابطال التسلسل او الدور لزعمهم ان المبدع الحكيم (اي القوة المدبرة) منفصل عن الكون ولكن الصوفيين يرون ان الوجود المنبسط الذي

يمثل الكون بمحسوسه ومعقوله كاف للدلالة على وجود الموجد وصفاته لانه عينه وفي كل شيء آية دالة على وحدته ومذهب وحدة الوجود (البانتيسم) الله في الكل والكل في الله هو سر التصوف وروحه ولاجل ذلك لا يتمسكون بادلة الكلاميين والجدليين وفرق الفلاسفة الذين تقرب فلسفتهم من مباديهم بل يستدلون بوجود القوة المدبرة المبدعة باكثر من بحثهم في شؤون الوجود المنبسط ومراتبه وظهوره .

وصدر الدين وان أفاض في البحث عن كل المباحث اللاهوتية واكثر مباحث الفلسفة الادبية والفلسفة العامة وتبحر فيها الا ان غرضنا الذي نرمي اليه هو ان نأتي من فلسفته بنقطتي الوفاق والخلاف مع الفلسفة المادية . وهي مسائل طالما سرّح الانسان افكاره حولها كمسألة هل المادة أزلية ام حادثة ؟ وهل للكون مبدع غير الطبع ؟ وهل هو شاعر عالم ؟ وهل في خلق الكون غاية وحكمة او لا ؟ ثم نردفها ببعض آرائه العلمية والادبية . وبذلك نصور نفسية رجل حكيم خدم اللغة العربية والعلم خدمة جليلة .

(طريقه الى معرفة الله تعالى) : يقول في الجزء الثالث من الاسفار الاربعة (فصل) في إثبات واجب الوجود والوصول الى معرفة ذاته : واعلم ان الطرق الى الله كثيرة لانه ذو فضائل وجهات كثيرة ولكل وجهة هو موليها لكن بعضها أوثق وأشرف وأنور من بعض . وأسد البراهين وأشرفها اليه هو الذي لايكون الوسط في البرهان غيره بالحقيقة فيكون الطريق الى المقصود هو عين المقصود وهذه سبيل الصديقين الذين يستشهدون به تعالى عليه ثم يستشهدون بذاته على صفاته وبصفاته على أفعاله واحداً بعد واحد وغير هؤلاء : كالمتكلمين والطبيعيين وغيرهم يتوسلون الى معرفة الله تعالى وصفاته بواسطة امر آخر غيره كالإمكان للمهية والحدوث للخلق والحركة للجسم او غير ذلك وهي ايضاً دلائل على ذاته وشواهد على صفاته لكن هذا المنهج أحكم وأشرف وقد أشير في الكتاب الالهي الى تلك الطرق بقوله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) والى هذه الطريقة أشار بقوله : (أوَ لم يكفِ بربك أنه على كل شيء شهيد) .

وذلك لان الربانيين ينظرون الى الوجود و يحققونه ويعلمون انه أصل كل شيء ثم يصلون بالنظر اليه الى انه بحسب اصل حقيقته واجب الوجود . واما الامكان والحاجة

والمعلولية وغير ذلك فانه يلحقه لا لاجل حقيقتـه بل لاجل نقائض واعدام خارجة عن اصل حقيقته ثم بالنظر فيما يلزم الوجوب او الامكان يصلون الى توحيـد ذاته وصفاته ومن صفاته الى كيفية أفعاله وآثاره وهذه طريقة الانبياء كما في قوله تعالى : (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة) . وهـذا المذهب يشبه مذهب (باسكال) المتوفى سنة ١٦٦٢ م : — أري في الطبيعة كائناً واجب الوجود دائماً لا نهائياً .

وقال في اول رسالته في سريان الوجود :

إعلم ان الواجب الحق هو المنفرد بالوجود الحقيقي وهو عينه وغيره من الممكنات موجودة بالانتساب اليه والارتباط به ارتباطاً خاصاً وانتساباً مخصوصاً لا بعروض الوجود كما هو المشهور .

ثم قال ان الوجود قد يطلق و يراد به الكون في الأعيان ولا شك في كونه امراً اعتبارياً انتزاعياً وقد يطلق و يراد به ماهو منشأ لانتزاع الكون في الاعيان ومصحح صدقه وحمله وهو بهذا المعنى عين الواجب .

وقال بعد بضعة سطور ان منـاط الوجوب الذاتي ليس الا كون نفس الواجب من حيث هي مبدأ لانتزاع الوجود والموجودية .

من الاصول المقررة في الفلسفة الالهية التي وضع عليها بعض الآراء الفلسفية واعترف بها صدر الدين فيما يظهر من كلماته السالفة ان الوجود امر واحد ذو مراتب في الشدة والضعف وله وحدة معنوية .

ومنها ان الوجود الحقيقي الذي صح ان يكون منشأ لانتزاع الموجودات عنـه والذي هو مصـدر الكون او هو كالشمس منبع الأنوار أزلي موجود قائم بالذات لا جاعل له .

ومنها ان مفهوم الوجود من أعرف الاشياء . وكنهه في غاية الخفاء . فانا نرى ذرة المادة ونحسها بالبصر ونلمسها باليد ولكن اسأل اي انسان تشاء من العلماء الطبيعيين (اي الفيزيولجيين) ما هي ؟ وكيف وجدت أأزلية ام حادثة ؟ وما هو سرها ؟ يقف أمامك والحيرة ملكت عقله ولا يدري ماذا يجيبك ولا تنفعه اختباراته الكيمية والفيزيكية .

فمعرفة كنه الوجود رمز لايزال مجهولاً على رغم جهود الانسان في كشفه منذ الأجيال والقرون وذهب سعيه سدى وكلّ جناح فكره عن الوصول اليه فهم هذه

الأصول بعضها الى بعض ينتج ان القوة التي اوجدت الكون بمعقوله ومحسوسه ومثلث أجزاءه المنسقة ونظمتها بنظامه العجيب — هو الله على مذهب صدرالدين اومن هوسالك سبيله في القول بوحدة الوجود [١] .

وهذا الرأي قريب من مذهب القائلين بان الطبيعة هي موجدة الكون أزلاً ونقطة الوفاق بين المذهبين مذهب وحدة الوجود او الصوفيين ومذهب الطبيعيين هي ما أشرنا اليه . الا ان مذهب الصوفيين وأنصار وحدة الوجود كما سيذكره صدرالدين ونشيراليه يفارق مذهب الطبيعيين في ان هذه القوة الموجدة التي يطلقون عليها الوجود الحقيقي او الواجب الوجود واجدة لجميع مراتب الكمال المعقول ولا يشذ عنها كمال في الوجود فلها العلم والقدرة باقصى مراتبهما فعلمه وقدرته غيرمتناهيين عدة وشدة ومدة . وصدر الدين والصوفيون وأنصار وحدة الوجود لايقولون بانفصال المبدإ (الله) عن الكون كما انهم لا يقولون بالحلول والاتحاد بل يقولون ان ارتباط الكون بالله تعالى وانتسابه كيفية مجهولة . قال صدر الدين في اول رسالته سريان الوجود ما هذا نصه : ثم اعلم ان ذلك الارتباط كما مر ليس بالحالية ولا بالمحلية بل هي نسبة خاصة وتعلق مخصوص يشبه نسبة المعروض الى العارض بوجه من الوجوه وليس هي بعينه كما توهم والحق ان حقيقة تلك النسبة والارتباط وكيفيتها مجهولة لا تعرف اه .

وهذا مذهب (مالبرانش) :

قال في الكتاب الثالث من تأليفه المسمى بالبحث عن الحقيقة ان جميع الكائنات حتى المادية والدنيوية هي في (الله) الا انها بطريقة روحانيــة محضة لا نستطيع فهمها يرى الله في داخل ذات نفسه كل الكائنات (ص ٧١) محاضرات العالم (دي جلارزا) الاستاذ في الجامعة المصرية وايد صدرالدين مذهبه بقوله تعالى (وهو معكم اينما كنتم

---

(١) والى هذا المعنى أشار الشاعر الكبير جميل صدقي الزهاوي :

الله والكون لاعـ ـلان الحياة اقترنا
فما لذا عن ذاك او لذاك عن ذا من غنى
ما الكون الا مظهر له به تبينــــــا

ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله على انه بكل شيء محيط وأحاط بما لديهم واحصى . وهو الله في السموات والارض ونحن أقرب اليه من حبل الوريد . ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون . هو الاول والآخر والظاهر والباطن) . وهذا الفيلسوف لا يرضى ان تحمل هذه الآيات على مجرد علمه تعالى . وقال ولا تصرف هذه الآيات عن ظواهرها فحملها على مجرد علمه تعالى بها او غيرها كما هو شيمة الظاهريين .

فان الصرف عن الظواهر من غير داع اليه من عقل اونقل غير جائز اصلاً ولا داعي هناك قطعاً ولا مانع من الحمل على الظواهر على ماعرفناك فاعترف .

وقال صدر الدين ايضاً الأقرب في تقريب تلك النسبة أعني إحاطته ومعيته بالموجودات ماقال بعضهم من ان من عرف معية الروح وإحاطتها بالبدن مع تجردها وتنزهها عن الدخول فيه والخروج عنه واتصالها به وانفصالها عنه عرف بوجه ما كيفية إحاطته تعالى ومعيته بالموجودات من غير حلول واتحاد ولا دخول واتصال ولا خروج وانفصال وان كان التفاوت في ذلك كثيراً بل لا يتناهى ولهذا قال من عرف نفسه فقد عرف ربه وللتنبيه على هذا المعنى قال بعض المشايخ شعراً :

حق جان جهان است جهان جمله بدن   املاك لطائف وحواس اين تن

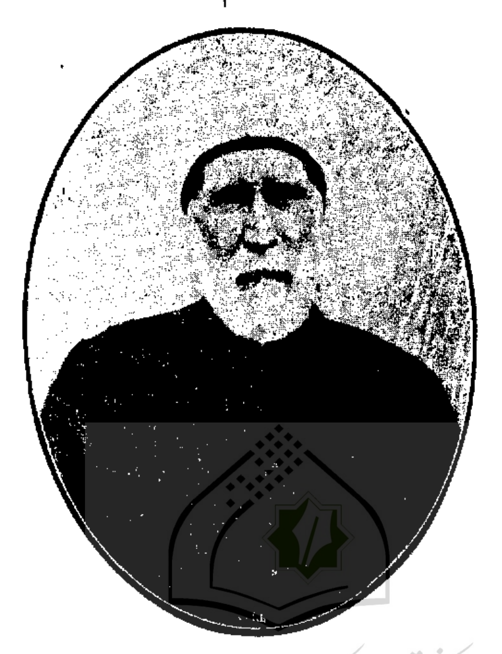
افلاك عناصر ومواليد اعضا   توحيد همين است دگر هاهمه فن

اي الله روح العالم والعالم كجسمه والاملاك حواس هذا الجسم اللطيفة والافلاك والعناصر الاربعة والمواليد الثلاثة اعضاء هذا الجسد وهذا هو التوحيد حقاً وغيره لا يتجاوز كونه فناً من الفنون . ثم يقول ولا يتوهم من ظاهر هذا الكلام ان الواجب الحق روح العالم ونفسه، كما توهم بعض القاصرين تعالى عن ذلك علواً كبيراً فان ذلك على ما حقق في موضعه ممتنع بل غرضه تقريب كيفية إحاطته تعالى بالموجودات من بعض الوجوه الى الاذهان السليمة المستقيمة .

« للبحث تتمة »

ابو عبد الله الزنجاني
عضو المجمع العلمي

العلامة سليم البخاري



لبست دمشق في العام المنصرم لباس الحداد لفقد عظيم دعاة الاصلاح والتجدد ، الثبت الحجة الاستاذ سليم افندي البخاري شهرةً ، الآمدي محتداً . فقد لبى دعوة ربه الى الدار الآخرة في اليوم العاشر من جمادي الاولى سنة ١٣٤٧ ﻫ والرابع والعشرين من تشرين الاول سنة ١٩٢٨ م عن عمر بلغ زهاء ثمانين سنة لانه ولد في دمشق غرة سنة ١٢٦٨ ﻫ كما وجد ذلك بخط يده . وقد شيعت جنازته بحفل عظيم امتاز بهيبة السنة لخلوه من البدع اذ ساد به الصمت بدون نداء المؤذنين فرادى او مجتمعين عملاً بوصيته ودفن في مقبرة الدحداح ، نور الله ضريحه .

حياته العلمية = بعد ان نشأ وتخرج من المدارس التحضيرية ، تولى شؤون تثقيفه وتربيته العلمية خال والدته الشيخ محمد البرماني من فقهاء دمشق الاحناف ، وعهد الى

الشيخ عمر حفيد الشهاب العطار بتعليمه علوم اللغة العربية من صرف ونحو ومعانٍ وبيان والبديع ووضع ، والعلوم العقليـة من منطق وحكمة وجدل . ولم يقتصر عليهما ، بل لزم ايضاً غيرهما من العلماء الاعلام أضراب منلا طه الكردي وأستاذي شيخ العلم في دمشق ابي بكر (بكري) العطار ، والشيخ محمد الامامي الشهير بابن الجوخدار ، ومفتي المذهب المالكي بدمشق الشيخ محمد صالح الجزائري والد أستاذنا العلامة البحاثة الشيخ طاهر الشهير ، والعلامة الفقيه الشيخ عبد الغني الغنيمي الشهير بالميداني شارح كتاب القدوري ، فتلقى منهم ماتلقى من العلوم العربية والعقلية واصول الفقه والكلام والتفسير . ثم اخذ الحديث الشريف رواية ودراية عن الشيخ سليم العطار . وحظي ايضاً بمجالس فقيـه الديار الشامية السيد محمد دالحمزاوي الحسيني مفتي دمشق الاسبق ، وأجازه بمايرويه عن أشياخه أرباب الاسانيد المسلسلة الرواية ، ولا سيما اعلاهم سنداً محدث الديار الشـامية الشيخ عبد الرحمن الكزبري .

وحينما أدى حجة الاسلام مكث مجاوراً بمكة المكرمة ستة اشهر تلقى في غضونها الربع المجيب ومتن الشمسية في المنطق من صاحب إظهار الحق الشيخ رحمة الله الهندي ، وسمع احياء علوم الدين لحجة الاسلام الغزالي من السيد احمد الدهان من علماء أم القرى وساداتها . ولزم دروس صاحب المؤلفات الكثيرة السيد زيني دحلان مفتي مكة المكرمة .

تقلد وظيفة مفتي كتيبة المدفعية (مفتي آلاي) في الفيلق الخامس من فيالق الدولة العثمانية وهو فيلق قطر الشـام وذلك على حداثة سنه فأحرز قصب السبق في الاستانة على من باروه في حلبة سباق الامتحان لغزارة علمه وقوة عارضته مع إجادته التكلم والكتابة باللغة التركية ومعرفته قليلاً من اللغة الفارسية ، وكانت وظيفته هذه من اعظم البواعث على تعارفه الى أغلب علماء الشام لكونه ظل زهاء ربع قرن يفحص طلبة العلوم الدينيـة المخصوصين من عموم المكلفين بالتجند الاجباري . فكثر عارفوه وذاعت شهرته العلميـة في أنحاء القطر وسرت منه الى بعض الاقطار الاسلامية ولا سيما الاقطار المجـاورة . وقد لقي كثيراً من رجالات العلم في الامصار ممن كانوا يمرون بدمشق لحج البيت الحرام او الذين يلقاهم اتفاقاً في بلادهم او في الحرمين الشريفين او في القسطنطينية ، وجرت بينه وبينهم مناظرات علمية عرفوا بهـا غزارة علمه ، وأعجبوا به كما عرف هو غزارة علم

حكيم الاسلام أستاذنا الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية وأعجب بنبوغه حينما لقيه اولاً في بيروت وثانياً في دمشق .

وكان في ايام فتوته وكهولته يعلم الطلبة العلوم النقلية والعقلية ، واخيراً اخذ يمعن في كتب الآداب العربية وأسرارها وكتب التاريخ والطبقات والملل والنحل ، وأسفار الشريعة الاسلامية ولاسيما الامهات السلفية ، وقد اطلع على كثير من نفائس الكتب المخطوطة التي كانت كنزاً دفيناً فحاول هو وصديقه الشيخ طاهر الجزائري ابرازها الى عالم الطباعة والنشر خصوصاً كتب محي السنة الامام ابن تيمية ووارث علومه ابن القيم .

وكان من دأبه الاطلاع على المؤلفات الحديثة في علوم الاجتماع والعمران والسياسة والحكمة النظرية والعلوم الكونية المترجمة عن الغرب ، وعلى الصحف السيارة والمجلات الدينية والعلمية . واذا عثر على كتاب يلائم ذوقه لايذره حتى يطلع عليه بامعان من فاتحته الى خاتمته . وله من المؤلفات رسالة في آداب البحث والمناظرة . ورسالة في عقائد الطائفة الدرزية . وله ايضاً تعليقات ومقالات في موضوعات شتى حفلت بها حواشي الكتب التي طالعها في حياته فدل فيها على تمكن من أسرار الادب والشريعة . والحق ان ما كتبه من هذه الرسائل الصغيرة لا يوازي مجال علمه الواسع والذي عاقه عن المضي في التأليف ان احد مشايخه قد كسر همته لما اطلعه على رسالة كتبها وهو في سن الطلب فهزأ به وبعمله حتى غضب مترجمنا واحرق ما كتب فجمد قلمه منذ ذاك العهد ولم يعد الى التدوين الا في الندر . ولم يعرف عنه انه نظم الشعر ولكن انشاءه كان انشاء العلماء لا عيب فيه من حيث البلاغة والفصاحة .

وقد نسخ بخطه الجميل بعض الكتب القيمة ، وخدم المعارف خدمة تذكر فتشكر حينما كان من اعضاء الجمعية الخيرية برياسة السيد علاء الدين بن العلامة السيد محمد امين عابدين . وقد تألفت هذه الجمعية المباركة في عهد والي الشام مدحت باشا الوزير العثماني الشهير قبل إحداث مديرية المعارف في ربوعنا على النسق الحديث .

سجاياه وأخلاقه = كان — رحمه الله — على جانب عظيم من الذكاء الفطري وسرعة الخاطر ، وقوة الحافظة ، سليم الصدر لا يضمر السوء او الغش لاحد ، عصبي

المزاج ، جميل الحيا ، رقيق الشمائل ، حسن العاشرة ، يحب النظافة والاتقان والترتيب ، ويرغب في وضع الاشياء في مواضعها . وكان مهيباً وقوراً بهيّ الطلعة ، جامعاً بين أناة الشيوخ وهمة الشبان ، ماضي العزيمة ، صبوراً على المصائب ، مقداماً على عظائم الاعمال ، شديد الغيرة على الوطن واهله ، صلباً بدينه ومبادئه القويمة ، يكره التنطع في الدين والتعصب الممقوت ، كثير التواضع مع إباء النفس ، فلا يتزلف ولا يحابي ، ولا يتجد بالمجد الكاذب والفخفخة الفارغة ، فلم يتذرع بالحصول على الأوسمة الخلابة والرتب الكذابة بل كان يهزأ بها . وكان خضاعاً للحق صداعاً به ، فاذا ثبت عنده ان هذا الشيء حق يخضع له بدون مكابرة ولا مماراة ، وان هذا باطل يجاهر بمناوأته بدون تقية ولو توقع الخطر ، وله مواقف عجيبة مع اولياء الامور في كل دور من أدوار الحكومات المتعاقبة .

اتحد رأيه السياسي مع رأي فتيان الترك الأحرار (تركيا الفتاة) ، فانتظم في سلك جمعياتهم السرية ، وظل زهاء ثلاثين سنة يجاهد في هذه السبيل معرضاً بنفسه لبطش القصر الحميدي ، غير مبال بسعاية الجواسيس المنتشرين في طول البلاد وعرضها ، فلم تقصف له الوشاية قناة ، ولم يفلّ توقع البطش من عزيمته صفاة ، بل ثبت ثبات الابطال في معترك النزال ، حتى أعلن القانون الاساسي العثماني سنة ١٩٠٨ م اعلاناً ثانياً في عهد السلطان عبد الحميد الثاني .

ولما رأى طيش سهام الاتحاديين غلب عليه التشاؤم من سوء المغبة ، وانسحب من جمعيتهم . لزم الحياد . ثم اضطر بسائق الحرص على سلامة الدولة الى خرق حياده والمجاهرة بمعارضتهم ، والانتظام في حزب الحرية والائتلاف ، وانتخب رئيساً لشعبته في دمشق ، ولم يروعه ما حاق بزعماء حزب الائتلاف من المطاردة والتنكيل عقب انتصار الاتحاديين على خصومهم بالانتخاب النيابي الذي ربحوه بارهاب الضعفاء وخيانة اكابر المجرمين .

ثم كان في طليعة المنادين بالإصلاح والمطالبة العادلة بحقوق العرب المهضومة بعد ان يئس أحرار العرب من حكومتي الائتلاف والاتحاد لضعف الائتلافيين وسوء نية الاتحاديين نحو الشعوب العثمانية التي ليست تركية ولا سيما الشعب العربي الذي طفق يشعر بقوميته العربية ويتغنى بمجدها السالف . فاشتد حنق أساطين جمعية الاتحاد

والنزقي على هذا الشيخ الجريء المقدام واخذوا يتربصون به و باخوانه الدوائر حتى سنحت الفرصة باعلان الحرب العالمية الكبرى وانحياز الدولة العثمانية الى دول اوربا الوسطى ·

لا جرم انه كان في العهد الحميدي من دعاة الاصلاح الديني علانيـة ومن طلاب الاصلاح السياسي سراً ، فاستهدف نفسه بآن واحد لضغينة أعداء التجـدد من رجال الدين ، وقذف اتبـاعهم الدجالين وسعاياتهم باسم الدين والسياسة ، وعرضهـا ايضاً لخطر البطش السياسي · ولئن نجا من بطش القصر الحميدي فلم يكن ليخلص من الإحراج والاضطهاد ومساورة القلق حينما يشتد تحري المنازل ونبش المكتبات والتفتيش عن الأوراق السياسية بوشاية من كانوا ينسجون السعاية من لحمة الدين وسدى السياسة · وكان كلما حدثت دعوة جديدة او صدر كتاب يدعو الى التجدد يُستدعى من قبل اوليـاء الامور الاستاذان الجليلان اللذان كأنهما رضيعا لبان الشيخ طاهر الجزائري والشيخ سليم البخاري · وكان كل منهمـا ينهج في مناقشته مع الولاة والقواد منهجاً يباين منهج الآخر مع اتحـادهما بالاخلاص وقوة العزائم · فان أستاذنا الجزائري كان لشدة دهائه تتغلب ضابطته اللسانية على عاطفته القلبية ، فكان يسدد ويقارب ، و يضطر بعض الأحيـان الى مغالطة اولياء الامور بأسلوب الحكيم · اما أستاذنا البخاري فكان لشدة صفائه تتغلب عاطفته على ضابطته ، فيعرب بصريح العبارة عن فكرته في غضون مناقشته مع رئيسه القـائد العسكري الكبير سواء أكان حائزاً رتبة فريق ام مشير · وموظف لا يملك من موارد الرزق سوى وظيفته يناقش رئيسه الاكبر بدون مبالاة يجب ان يقدر ثباته ومفاداته في سبيل مبادئه · واصح ما يقـال بوصف ذينك الشيخين المخلصين الجزائري والبخاري ان الاول قد قبضه الدهاء ، وان الثاني قد بسطه الصفاء · وكلاهما لقيا في سبيل دعوتهما ضروب العناء · وكانا تمثال الثبات ومثال المضاء · لكن الاول نجا من بطش الاتحاديين · ووقع الثاني في شرك الإنتقام اذ سجنه جمال باشا السفاك شهرين في دائرة الشرطة ، ثم ساقه الى مجزر فتيان عرب الشام الأحرار محكمة عالية العرفية اسماً ، فلاقى الألاقي في محنته ، وذاق في سجنه ولغربه آلام الامراض ، وا كتنفت عليه ضروب الخطوب ، وحاقت به أنواع المصائب من كل جانب · فقد اتصل به وهو سجين ان ولده الذي كان يقود احدى الفرق العثمانية وقع اسيراً في قبضة الجيش الروسي ولم

يوقف له على خبر ، وان ولده الضابط الصغير سيق الى بادية الحجاز .

وبينا هو كذلك قبضت الحكومة على ولده الفار من خدمة الجيش المقصورة الضارب أكباد الإبل في بادية الشام ، وجيء به مكبلاً بالحديد ، ولم يكد يصبح الوالد حتى قرع سمعه ان ابنه صار مثله سجيناً في عالية ، واخيراً سل من جنبه الشاب البار الشهيد محمود جلال الى المشنقة .

وامر هذا الطاغية الاثيم بتغريب المترجم له وعائلته الى أقصى الاناضول الغربي على سبيل نقل المكان الى الأبد أسوةً بأسر الشهداء والذين خرجوا من سجون عالية احياءً وغيرهم . واستدعاه من السجن المرة الثالثة ليسبر خضوعه للحكومة الاتحادية بعد إرهابه بالتنكيل به وقتل ابنه ، وأخبره انه يريد ان يعافيه من مشقة النفي رحمةً بشيخوخته على شرط ان يكف لسانه من الآن وصاعداً عن القدح بالحكومة ، فما كان منه الا ان طعنه بلسان التورية طعنةً أثرت في صميم فؤاده ، فغضب ، وعدل عن اعفائه من التغريب ، وأنذره باعادة التنكيل فيما اذا ظلَّ مثابراً على خطته التي تغضب الحكومة ، فصدر عن مجلسه الرهيب ولسان حاله يقول (اقضِ ما أنت قاض) . وآثر عذاب الجثمان بوعثاء السفر ، وأسر التغريب على تعذيب الضمير بالمصانعة والتزلف .

شاء الاستاذ عقب إعلان القانون الاساسي ان يتقاعد عن اعمال وظيفته فطلب إحالته على راتب التقاعد فأجيب طلبه ولزم داره ، وعكف على مطالعة كتبه ومزاولة درسه وبحثه . لكن احد ولاة سورية اسماعيل فاضل باشا أراد ان يخرجه من عزلته وأراده بالحاح ان يكون عضواً في مجلس الاوقاف . وبعد اخذ ورد وشرط شروط قبل وتذرع بمشاريع نافعة حال دون إتمامها عزل الوالي الموما اليه . وكانت الحكومة تعينه من حين الى آخر في اللجنات الحكومية المختلفة . وقد شغرت في ذاك العهد وظيفة فتيا دمشق ثلاث مرات ، فرغب عنها . ثم عين في العهد الفيصلي عضواً في مجلس الشورى ، وقد تذرع بفرض الرواتب الشهرية لبعض العلماء المعوزين المنزوين الذين لا يعرفهم الا العلماء . وحينما أحدث المجمع العلمي العربي في ذلك العهد انتخب في عداد اعضائه . ثم عين عضواً في مجلس المعارف الكبير . وأخيراً أسندت اليه رياسة العلماء في دولة دمشق ، فقام على شيخوخته باعباء وظيفته احسن قيام ، فأعاد الى المسلك الديني هيبته

في الجملة بعد ان شوهته الفوضى ، وأهانه اختلاط الدخيل بالعريق ، وشرع يقرب به من النظام شيئاً فشيئاً لعلمه باستحالة الطفرة . واحدث لدائرة الرياسة أوضاعاً تقربها من مضاهاة دائرة مشيخة الاسلام العثمانية ، بل تفوقها بادخال التجدد بالتوفيق بين روح الدين ومقتضيات العصر النافعة ، فألف لهذا الغرض وغيره مجلساً برياسته مؤلفاً من مفتي المذاهب الاربعة في دمشق وامين الفتوى وغيرهم من خيرة العلماء المجددين والمحافظين وسماه مجلس الشورى الشرعية ، وأفرز منه لجنة للنظر بالفتاوى التي ترد من جميع مفتي الملحقات على ديوان الرياسة تدعى لجنة تدقيق الفتاوى لانه اوعز الى جميع متقلدي وظيفة الفتيا ان يبعثوا اليه آخر كل شهر بجدول الفتاوى طبق الجدول الذي رسمه ديوان الرياسة . وكان يطرح على مجلس الشوري الفتاوي العصرية التي تقتضيها روح العصر ولا تنافي اصول الدين وقواعده العامة وان لم ينص عليها الفقهاء لعدم حدوثها في ايامهم . وحكمة طرحها على المجلس هو اقترانها بابرام قرار صادر عن جماعة من الفقهاء المحافظين والمجددين . وهذا من أسرع الخطوات الى التوفيق بين الدين والعمران والمحافظة والتجدد . مع مايضاف الى ذلك من الابتعاد عن الاستبداد بالرأي والانفراد بالفتيا . وحظر على غير المدرسين الموظفين الوعظ في المساجد والجوامع بدون وثيقة من قبل الرياسة في العاصمة ومن قبل المفتي في الملحقات منعاً لفوضى التدريس ودجل الجهال . الى آخر ماهنالك من ضروب الاصلاح والمشاريع المفيدة . وأجزلها فائدة مشروع الكلية الاسلامية في المدرسة السميساطية لو لم يحل دون اتمامه مناهضة أعداء الاصلاح الديني ، ولما رأى الحكومة خذلته بعد ان آزرته بهذا المشروع باديء ذي بدء آثر الاستقالة لولا ان ثبته الحريصون على نهضة العلوم الدينية وعمران معاهدها .

ولما عقد رئيس العلماء وشيخ الاحرار البيعة بالخلافة لصاحب الجلالة الهاشمية الحسين ابن علي كلفته الحكومة ان ينذر خطباء المساجد بقطع رواتبهم فيما اذا ظلوا مثابرين على الدعاء للسلطان حسين ، فرفض واعتزل منصبه ، فلقبته حينئذ الصحف الحرة بشيبة الحمد ، وملأت ما بين أعمدتها سطور الثناء عليه .

عاد عميد المجددين الى عزلته بعد الغاء وظيفته ، وعكف على مسامرة كتب العلم

وعبادة ربه معرضاً عن مظاهر الدنيا وعشرة بنيها . لكن المقادير شاءت ان تبرهن على مفاداته في سبيل المصالح العامة حتى في أواخر ايام حياته ، فقد تقلد قبيل مرض موته رياسة مؤتمر الاوقاف الاسلامية اجابة لدعوة منتخبيه الوافدين الى دمشق من انحاء قطر الشام ، مقاوماً عجز الهرم وآلام السقم بقوة عزيمته .

وبالجملة فان فقد الاستاذ البخاري ثلم يصعب سده فانه نادرة بين العلماء الدينيين فلا غرو اذا بكاه العرب والاسلام في بلاد الشام وغير الشام .

دمشق : محمد سعيد الباني



الفرق بين تربيتنا

وتربية اهل الغرب (١)

يا سيداتي

كنت أتحامى منذ سنين ان أقف هـذا الموقف على منبر المجمع العلمي لاحدثكن كما حدثت الرجال عشرات من المرات باحاديث تاريخية واجتماعية وأدبية . ذلك — لاني كنت أفضل ان تتولين بانفسكن محاضراتكن لعلمي بان السيدات أعرف بما يصلحهن من الرجال يستطعن الوقوف على الروح النافع في ثقافتهن ، ومع هذا فقد اكتفيت في بادئ الامر بمن رجوته من شيوخ اعضاء المجمع وغيرهم ان يحاضركن الحين بعد الآخر ببعض ما يروقكن من الموضوعات وأسفت ولا أزال آسفاً لانه قل منكن الآنسات والعقائل اللائي تفضلن فألقين على مسامعكن محاضرات على مثال محاضرات الرجال . وقد وعدني هذه المرة معظم إخواني أعضاء المجمع بان يتولوا بعد الآن القاء محاضرات عليكن منوعة الأساليب بحسب اختصاص كل واحد منهم واعترفوا معي بانهم قصروا بخدمتكن في السنين السالفة لحصروا وكدهم في محاضرات الرجال وكان الاولى ان تقسم هذه العناية بين الجنسين . وعسانا لا نقصر في هذه السبيل وأعود فألح ان يتقدم بعض فضليات السيدات لالقاء الافكار التي يرين فيها فائدة لجنسهن اللطيف . والمجمع مستعد بان يفسح لهن المجال ليقلن ما شئن من الموضوعات الادبية والاجتماعية والاقتصادية والبيتية ليساعدن بنات جنسهن على النهوض والترقي وهذا فرض على أعناقهن لا يقوم به سواهن .

مما أخر الشرق ان المرأة لم ينظر اليها نظر العناية الا في العصور الاسلامية الراقية . فلما انحطت الامة عادت المرأة الشرقية سيرتها الجاهلية الاولى وغمطت حقها من الحياة الراقية ولم تعد لها ادنى مشاركة في الاعمال العقلية . وبذلك زاد المجتمع الاسلامي

(١) من محاضرة للسيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي ووزير معارف دولة سورية القاها على السيدات في ردهة المجمع يوم الجمعة في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩٢٨ و١٩ جمادى الاولى سنة ١٣٤٧ .

انحطاطاً لان نصف اعضاء المجتمع وهم النساء لم يربين التربية الاجتماعية اللازمة · حقاً ان الشريعة السمحة اذا اعطت المرأة حقوقاً ترفع من شأنها فان القائمين على تنفيذ الشرائع وهم الرجال لم يضعوا المرأة في المكان اللائق بها حتى آل الامر لان يعتقد كثير من المغفلين ان النساء اداة من ادوات البيت تستخدم في بعض الأغراض والأهواء وليس لها وظيفة غير ذلك · تشرى وتباع بحسب رغبة الرجل وارادته فقط تعطى وتمنع على الهوى ·

وكأن ارادة المولى تعلقت ان تبدو شعلة ترقي المرأة من بلاد الغرب بعد ان اشرقت زمناً طويلاً في هذا الشرق فأخذ البنات يتعلمن كالفتيان ومضت الأجيال والمرأة تنافس الرجل هناك في التعلم والعمل حتى استرجعت بعض حقوقها المهضومة وفاقت الرجال في كثير من الأعمال بقدر ما تسمح لها حالتها ووقتها وطبيعتها ·

واذ قد اصبح الغرب مدرسة العالم كله وكانت مدنيته ارقى المدنيات دعتنا الحاجة الملزمة لان نقتبس منه كل ما قام به امره واستقامت رغائبه بقدر ما ينطبق مع عاداتنا وتقاليدنا ويتلاءم مع هوائنا وسمائنا · ولكل أمة مقدساتها ومشخصاتها اذا زهدت فيها تذهب مسحة كمالها وجمالها ·

حقيقة ان المرأة مقصرة في هذه البلاد عن بلوغ شأو النساء في الامم الراقية اليوم قصوراً مخجلاً كان علة العلل في وصمنا بكل نقص ورمينا بكل كبيرة ولكن الذنب ذنب الرجال لا ذنبها · هي ضعيفة واغتصبها القوي حقها ونظر اليها غير نظر الغربي للنساء بل غير نظر الاسلام اليها ولكن هذا التقصير يجب ان يداوى وهذا النقص يجب ان يسار به نحو الكمال ·

ولم ار في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام

تعرفت في الشهر الماضي في القطار من بروكسل الى باريز بآنسة في نحو الثلاثين من عمرها وهي ابنة احد اساتذة جامعات البلجيك ومن اعضاء مجمعها العلمي فذكرت خلال الحديث اسفها لكونها لم تتعلم التعليم العالي لان اباها لا يقول بتعليم النساء العلوم العالية بل ان يقتصر في تعليمهن على التعليم الابتدائي علماً منه بان الاخذ في العلوم العالية من الامور البديهية التي لا يحتاج تحقيقها الى مناقشة فكيف يقول والدها بغير هذا القول ومكانته مكانته من العلم والتجارب ·

فقلت للسيدة ان اباها على حق في رأيه لانه شاهد اقبال النساء في بلاد كم على تلقف العلم العالي فخاف ان يؤدي الحال بالنساء لان يخرجن عن المنزلة التي وضعتهن فيها الفطرة او الطبيعة لان للمرأة واجبات شاقة غير واجبات الرجل ربما اخرجها التعليم العالي اذا كثر الاقبال عليه عن القيام بها وصرف وجهتها الى مواطن أخرى من الحياة تقل فيها الفائدة ويظهر العجز . وهناك تتزعزع اركان المجتمع وتنهار دعائم المدنية والقومية .

ولكن هذا الكلام اذا صح عن بلاد البلجيك وليس فيها من لا يقرأ ولا يكتب من الرجال والنساء فلا يصدق على هذا الشرق القريب وقلّ فيه جداً عدد المتعلمات ومن درسن العلوم العالية اندر من الكبريت الأحمر ولا اثر لهن . فاذا كان الافراط في تعليم المرأة العلوم المختلفة العالية اصبح شيئاً مرغوباً عنه في ارقى بلاد الغرب وهو الصواب فان التفريط في عدم تهذيب المرأة حتى التهذيب البسيط شيء مرغوب فيه كل الرغبة . والشيء يرتفع ثمنه لندرته ويرخص في القيم وتزهد فيه النفس اذا زاد عن الحاجة عدده فابتذل .

الحياة ميدان جهاد بين الناس لا يختلف فيه ذكر عن أنثى ولا اسود عن ابيض ولذلك رأينا الغرب لما تمت ادوات ترقيه قامت المرأة تغالب الرجل فتغلبه او تكاد . لانها نافسته في المعامل وفي المخازن وفي الحقول وفي الاستخدام فمعظم الفنادق والمطاعم والمقاهي والاندية والمصارف وبيوت التجارة هي بايدي النساء نافسن فيها الرجل فغلبنه وجدلنه بل اخذن ينافسن الرجل في المستشفيات من تمريض وتطبيب وفي المعامل الكيماوية بل وفي التأليف والصحافة والكتابة والمحاماة والحساب . فتآليف النساء في الغرب كثيرة جداً وكلامهن في النظم والنثر مقبول اكثر من كلام الرجال والمحاميات عن قضايا الناس موفقات ببلاغتهن وجريدتهن اكثر من الرجال والصحافيات نافذات الكلم مؤثرات في الاحزاب والنواب ، و بلغ بهن الترقي هناك ان كان منهن النساء الطيارات والغواصات وما ادري اي صنعة من الصنائع في الغرب لم تشارك فيها المرأة الرجل ولم تسر معه جنباً الى جنب سير المثيل للمثيل .

بل ان السيدات في بعض البلاد قد نلن حقوقهن في النيابة عن أممهن وقمن بهذا الواجب على مايقتضيه وما زلن مجدات ليأخذن جميع حقوقهن التي سلبها الرجل منهن

بقوته منذ الازمان الهمجية الاولى . وانتهز الرجل فرصة جهل المرأة فاشتط في اغتصابه حق غيره وادعى الارجحية والاولية . شأن القوي مع الضعيف في كل عصر ومصر .

اذا عرفنا كل هذا فمن الحق أن يقال ان المرأة الغربية ظلت قروناً وهي تقاوم الرجل في نيل حقوقها ولم يتيسر لها بلوغ هذا المبلغ من الترقي حتى جاءت عدة بطون كان كل بطن ارقى من سالفه فاذا رأينا نحن ابناء هذا العصر نهضة المرأة الغربية ومايصدر عنها من اعمال عظيمة لاينبغي ان تأخذ منا الدهشة مأخذها وان نذهب الى ان هذا مما تم على ايسر حال وما هو في الواقع الا ابن الأجيال الطوال . فقد سئل احد رؤساء الجامعات في اميركا ماهذا الذي وصلتم اليه من درجات المدنية فأجابه انه نتيجة بضعة بطون ارتقت كان كل بطن يأتي اقدر ممن سبقه وهكذا حتى تكونت جراثيم الترقي على مارأينا في هذا العصر فمدنيتنا مجموعة جهود وعمل بطون كثيرة في شتى القرون .

من طبعنا معاشر الشرقيين ان نطلب في الحال إتمام العمل على اي صورة كانت من النقص الظاهر ومن طبع الغربيين ان يتموا العمل على ما يجب ان يكون . ولذلك نرى كل يوم الفرق بين صناعاتنا وصناعاتهم وعلومنا وعلومهم واعمالنا واعمالهم وان الاختلاف بين الشرقيين والغربيين بعيد يكاد يكون على مثال المسافة المحسوسة بين المشرقين والمغربين .

نعم من طبعنا ان نعجل الشيء قبل اوانه ومن تطلب الشيء قبل اوانه عوقب بحرمانه .

فالمرأة الغربية كما قلنا هي في تمدنها هذا ابنة قرون طويلة ونحن اذا جئنا نقلدها في كل شيء نخطيء خطأ شديداً لان المرأة هناك جرت على سنة النشوء والتكامل . وبديهي اننا لا نستطيع ان نرتجل تربية خاصة لامة نرى الفرق محسوساً بين عقليتها وعقلية غيرها . نحن الآن نحتاج الى ان نأخذ من اوربا في تربية نسائنا ان يكنّ على شيء من الصبر والثبات اولاً وان يتعلم ما امكن جميع النساء التعليم الابتدائي وقليل منهن يتعلمن بحكم الطبيعة والحاجة التعليم الاوسط او العالي وان تعمل كل امرأة واجبها نحو ابيها وأمها وزوجها واولادها . ولكن الوصول الى هذه الدرجة نحتاج الى ان نعمل له ثلاثين سنة أخرى على الاقل وان تقوم الطبقة المثلى منكن تجتمع وتفكر وتقدر وتقرر وتنفذ فما حك جسمك مثل ظفرك .

نعم يجب اعتماد النساء في نهوضهن على عملهن الخاص واجتهاد افراد منهن فقد تركن الحبل على الغارب واتكلن على الرجل في كل شيء فأصبح الاتكال لهن خلقاً انسن به ولم يعمدن

بتكرنه فضاعت مع الزمن بعض مزايا كانت مغروسة في بنات حواء واصبحت وظائفهن محصورة في دائرة ضيقة وتزيد ضيقاً كلما كان الرجال يجورون عليها وينحط المجتمع حتى بلغ ضعف العقول في الرجال ان اسقطوا انفسهم واسقطوا معهم شركاء حياتهم بتحكمهم البارد وآرائهم التي لا مبرر لها من شرع وعقل .

اعود فأقول ان في المدنية الاوربية ياسيداتي عيوباً كما فيها حسنات فحسناتها اكثر من ان تعد ولكن لما كانت هذه المدنية اميل الى الماديات جاءت فيها نقائص ارجو ان لانقتبسها ولا ان نأخذها بدون قيد ولاشرط فقد طمست الفضائل في فاليها بكثرة اختلاط الجنسين في المعامل والمصانع والمحال العامة ففسد نظام الأسرة وقلّ النسل . وعلماء الاجتماع والاخلاق في اوربا واميركا اليوم ينادون بالويل والثبور ويحاذرون مما اصاب المجتمع الغربي ويصيبه بسبب هذا النقص والرجاء معقود ان لا تدخل الينا هذه العادات التي مااستولت على أمة الا وافسدت نظامها وقربت اوان انحلالها .

فالواجب على مجتمعنا اذاً ان يأخذ عن الغرب ماينطبق مع تقاليده وعاداته في الجملة يأخذ النقاوة ويرمي بالنفاوة . ولايتقيد كل هذه القيود ولا يفلت كما هوالحال هناك من كل قيد ، ومن العادات ما لودخل في مجتمعنا لزاد شره المستطير اضعافاً ، وتعجبني ابيات حافظ ابراهيم في الحجاب وفيها التوسط المقبول المعقول :

انا لا اقول دعوا النساء سوافراً	بين الرجال يجلن في الاسواق
يدرجن حيث اردن لا من وازع	يحذرن رقبته ولا من واقي
يفعلن افعال الرجال لواهياً	عن واجبات نواعس الأحداق
في دورهن شؤونهن كثيرة	كشؤون رب السيف والمزراق
كلا ولا ادعوكم ان تسرفوا	في الحجب والتضييق والارهاق
ليست نساؤكم حلىً وجواهراً	خوف الضياع نصان في الاحقاق
ليست نساؤكم اثاثاً يقتنى	في الدور بين مخادع وطباق
تتشكل الازمان في ادوارها	دولاً وهن على الجمود بواقي
فتوسطوا في الحالتين وانصفوا	فالشر في التقييد والاطلاق
ربوا البنات على الفضيلة انها	في الموقفين لهن خير وثاق

وعليكمو ان تستبين بناتكم نور الهدى وعلى الحياء الباقي

نعم ياسيداتي خير الامور الوسط والواجب على كل رجل وعلى كل امرأة ان يقوم بواجبه على مايجب وبقدر مايجب في الحين الذي يجب وان يجعل نصب عينيه اولاً الغرض الاسمى من التمدن . فالعفة كنز ثمين يرجو كل عاقل ان لا يسلب منا ، فقد اتفق لنا في الادوار السالفة والخالفة ان كنا من العفاف على جانب تحسدنا عليه الامم وكنا متمدنين عاملين ولنا دول خضع لسلطانها اهم اجزاء العالم وكنا حملة العلم والآداب ودعاة فضائل واعمال . وكان من نسائنا المجاهدات والممرضات والعالمات والمحدثات والمقرئات والاديبات وكن يشاركن في كل خير فقد رأينا قسماً مهماً من مدارس دمشق القديمة من وقف ربات الخير من النساء فلو لم تكن لهن ثقافة عالية هل كن يفكرن في مثل هذه المبرات ؟ .

ليس في الاديان السماوية كلها مايعوقنا عن المضي في سبيل التعليم والتربية وهذه اول درجة في سلم ارتقاء البشر فنحن في نهوضنا لانلام اذا طبقنا النقل على العقل وشريعة هذا السواد الاعظم في ديارنا مرنة تطبق في كل عصر ومصر اذا كانت ايدي القائمين بالامر رشيدة حاذقة بعيدة عن الجمود والجهل المميت . قلت في محاضرة الاسبوع الفائت ان سر مدنية الغرب دؤوب دام قروناً مطرد الاوائل بالاواخر ونظام نافذ لا يرحم من لايعمل ولا يبقي على جاهل وضعيف . الغربي يحتفظ بالقديم ويتهالك في اقتباس الحديث . والشرقي جمد على قديمه وقلما تحدثه نفسه ان يأخذ الحديث الا بحيطة شديدة وبطء مؤسف حتى بلغ به ضعف المدارك ان اصبح يجادل في البديهيات من غير استحياء واذا جئت تنظر في الهمم والمضاء بين الشرقي والغربي فهناك جماع فضائل الغربي وهناك ينقطع الشرقي ويتفاوت البون بين الخلقين والجيلين .

هناك يفنى الفرد في المجموع وهنا يعبث الفرد بالمجموع ويحق ماقال بعضهم الغرب هو التسلط على الطبيعة بالعمل ، والشرق هو استثمار الانسان للانسان وقد جود حافظ في التنظير بيننا وبين الغربيين فقال :

شمسهم غادة عليها حجاب فهي شرقية حوتها الخدور
شمسنا غادة ابت ان توارى فهي شرقية جلاها السفور
جوهم في تقلب واختلاف غير ان الثبات فيهم وفير

جونا ثابت الجواء ولكن ليس فينا على الثبات صبور
ولديهم من الفنون لباب ولدينا من الفنون قشور
فاذا ماسألتني قلت عنهم امة حرة وفرد اسير

كانت الممالك تقوم عندنا بالافراد النابهين من الحكام اذا ذهبوا انقطعت اعمالهم وممالك الغرب تقوم بالجماعات اذا هلك الفرد لا يكاد يشعر به و يأتي بعده من يتناول عمله فيتمه ولا يخطر بالبال ان ذلك مما تتأذى به عزة نفسه لانه سار على سنن من تقدمه فالغرب اقرب الى تسلسل الفكر او قل هو اقرب الى القانون والشرق مضيعة للتسلسل وربيب الفوضى · اذا قيل ان مدنيتي الغرب مادية صرفة لا شأن فيها للمعنويات فمدنية الشرق مغموسة بالمعنويات والشأن فيها للماديات قليل او هو فيها امر ثانوي لا يؤبه له يقال ان ماديات مدنية الغرب اكثر من معنوياتها فهذه للاولى تبع ومعنويات المدنية الشرقية اكثر من مادياتها وزادت ضعفاً على ضعفها في العهد الاخير فأصبحت ضئيلة في معنوياتها وماديانها · والماديات السلم الموصل الى بلوغ كل قوة · واي معنويات تبقى لمن تجرد من المادة وهل من غناء للضئيل في المجتمع كالقوي ·

ومن الانصاف ان يقال اننا بقدر ما نرى في المدنية الحديثة من فضائل نرى فيها ما يقابلها من رذائل ولكن الفضائل تربو على غيرها كثيراً · فالامثل بقومنا ان يقتبسوا الخير و يغضوا الطرف عن الشر · ولو عقلنا لما سرنا الا على هذا المنهاج ولما أبينا مليا قبل ان نطرح عاداتنا ونقتبس غيرها · اتت اوربا بهذه المدنية الساحرة فانتفعت بعملها الانسانية جمعاء و يغتفر النقص القليل فيها في جنب ذاك الكمال · ولا نقول الكمال المطلق لانه لا يرجى ان يكون في هذا البشر ولا وقع في عصر من عصور التاريخ الذي انتهى الينا ·

اخترعت اوربا اموراً خففت بها امراض الانسان · واخترعت اموراً تعجل في ازهاق روح الانسان · ونظنها في الاولى انفع منها في الثانية · اخترعت ادوية قللت من عدد الوفيات كعلاج الجدري والحميات والاوبئة والامراض الزهرية والكزاز (تيتانوس) والخناق والنقرس الحاد · وكثرت بالمدنية امراض السرطان والسل واوجاع القلب والكلى والامراض العصبية والعقلية · وكان معظم انتشار هذه الامراض من

ازدحام السكان في بقعة واحدة ومن رغبة الفلاحين في مغادرة القرى الى المدن واتخاذها سكناً . فالمدن في الغرب يزيد كل سنة سكانها بمن يهاجر اليها خاصة من القرى لانهم يذهبون الى ان العيش في المدن ارفه واربح .

رأى القرن التاسع عشر البخار والكهرباء ومنهما نشأت اكثر ادوات هذه المدنية الحديثة ، فكان من ابرك القرون على الانسانية . واخترعت امور في الطب والجراحة خففت من ويلات الطواعين والاوبئة والامراض الوافدة ولكن بدأ فيه استعمال المورفين ثم تبعه الكوكايين والهيروئين وكل ما فيه داء دفين وكثرت السموم من المشروبات الروحية فأضرت بالعقول والاجسام . ورأى القرن العشرون انواعاً من الاختراعات فعرف الراديوم واخترعت الطيارات والسيارات والغواصات الى غير ذلك مما فيه خير كثير وشر قليل . وليس في العالم خير محض ولا شر محض .

يقول رجال الطب والصحة ان هذه الحياة الشديدة والنشاط المتواصل والحرص الذي استولى على النفوس سيؤدي بالمدنية الحاضرة الى الهلاك ويقضي على العناصر والشعوب ويقلل ايام الحضارة . ذلك لان اهوية المدن مشبعة بالغبار والغازات الضارة وقليل اوكسجينها . وفي هذا المحيط القذر تكثر الامراض وتنتقل من السقيم الى السليم بسرعة ويكثر الفحش والمسكرات والموبقات . فكأن معظم هذه العيوب خاصة بالبلاد الصناعية . وللصناعة ادواء كما لغيرها من اعمال الناس . وكيف تجود الصحة مثلاً في مدن لم يكتف اهل الغرب ان يبنوا على سطحها بل اخذوا يبنون بيوتهم في جوها . فالبيوت ذات الستين والسبعين طبقة في نيويورك مثلاً اصبحت من الامور العادية وقد قدروا عدد السكان في كل كيلومتر واحد من هذه المدينة العظيمة فبلغ مائتي الف ساكن . واما البنايات ذات الطبقات العشر في اوربا فهي من السذاجة بحيث لا تحتاج الى بحث ولا نظر ولا توجب دهشة ولا استغراباً .

ثم ان الصناعة في الغرب قللت من رغبة الناس في الزواج لان العاملة لا تستطيع ان تكون ربة بيت وهي تعمل طول نهارها وجزءاً من ليلها في المعمل والمصنع فقلت المواليد في فرنسا اولاً فنزل معدلها في مئة سنة من ٣٥ في الالف الى ١٨ ثم أصيبت بهذا النقص ايضاً بريطانيا العظمى والمانيا وايطاليا والولايات المتحدة ثم اوستراليا ثم سويسرا وهي من

البلاد التي بلغت فيها المدنية ارقى درجاتها . وتعذرت الحياة المرفهة على الناس فأخذ الكثير من اهل المدن لا يفكرون في الزواج واذا تزوجوا ارتكبوا كل منكر ليفسدوا طرق التناسل و يصابوا بالعقم على العمر . اعرف عشرات من الرجال المذكورين في مجتمعهم وقد بلغ بعضهم سن اليأس فلم يتزوج اي بلغ الشيخوخة ونحو العشر الآخر أولد اولاداً والتسعة الاعشار الثانية عاش اربابها عقماء . وربما يتبادر الى الذهن ان اهل الغرب اذا تزوج كل من كان منهم في سن الزواج زادوا ضعفين اوثلاثة عما هم الآن . وهذامعقول ولكن أ كانت بلادهم تؤويهم وتطعمهم ؟ ام كانوا يهاجرون بحكم الطبيعة الى آسيا وافريقية و يعمرون الاصقاع الغامرة منها . ولعلهم يفعلون ذلك في مستقبل الايام خصوصاً اذا عالجوا مسألة التناسل بعد ان عرفنا ان معظم الامم الاوربية اصبحت لا تزيد مواليدها الا قليلاً .

حدثني الاستاذ مرجليوث ان عدد النساء في انكلترا اليوم يزيد على عدد الرجال مليونين وهذا من المعضلات الكبرى في حياة الانكليز . وانا اقول ان ذلك اخرجهم عما كانوا معروفين به من الصيانة . ولقد كان من المشهور ان انكلترا اقل الامم الغربية الكبرى فساداً واقربها الى الاخلاق الفاضلة ولكن الحرب العامة كشفت الحجاب عما كان مستوراً بعض الشيء وزاد في العهد الاخير سوءاً فأخذت المرأة في انكلترا تستمتع بحرية ما كانت لها وكادت حال البلاد البريطانية تشبه في هذا الباب حال فرنسا والمانيا وايطاليا واميركا .

وبعد فان علة العلل في الشرقي انه لا يتعلم صناعة فيتقنها بل يقف عند شفير الوادي منها لا تحدثه نفسه ان يخصي فيها اخصاء الغربي وان يرقى بها الى القمم . وكل مركز مصنع تطاول اليه صاحبه بدون ان يعد ادواته يسقط من حيث يريد الصعود . والتلفيق لا يكون كالتحقيق مهما طليته بطلاء ظاهر وحليته بما تراه جميلاً من حلل . واذا الشيء لم يأخذ من نفسك لا تبرّز فيه .

وعلى الجملة فان حسنات الغرب في باب العمليات أعود عليه من حسنات الشرق على مايظهر فانها هنا تجمد عند حد الانظار او النظريات .

انتهى المنقول من كلام طويل القيته على الرجال في الاسبوع الماضي . بقي ان اقول ان

السعادة لا تدخل بيوتنا حقيقة الا اذا تعلم النساء وتهذبن التهذيب العصري الممزوج بآدابنا الاصلية وكل شيء موقوف على العلم ، فقد شهدنا اثره في كل بيت وفي كل عمل . ولكم رأينا الفرق محسوساً بين بيت درست ربته بضع سنين في مدرسة بسيطة وبين دار سيدة لم يكتب لها ان شغلت عقلها بالدرس ولا قلبها بالتعلم . عصر الأمية القضي والامية من أعظم عيوب هذه الديار واول نقص تجب معالجته . وبالامية انتشرت فينا أمراض أقلها مايهلك أمة باسرها . وبالامية ولاسيما بين النساء شقيت أمتنا قروناً فكانت في مؤخرة الامم المنحطة حتى أصبحوا يتهموننا في الغرب ضروب التهم . بل أصبح الرجل منا اذا جرى حديث المرأة الشرقية لايعرف كيف يتخلص من بحث هذا الموضوع اذ يجد أمامه شوكاً وعوسجاً يصيب رجليه و يديه ووجهه فيرتبك في امره .

سيداتي أخاف ان أسترسل على هذا النحو في محادثتكن وأخاف ان أكرر الحديث لئلا أدخل السآمة على نفوسكن . فالحديث المعاد بارد والكلام في بديهيات المسائل ابرد . ولولا انكن من طبقة الدارسات ومن ربات بيوت معروفة بالعلم والتهذيب لما جسرت ايضاً ان أحدثكن هذا الحديث . وغاية ما يرجوه كل من يحب أمته ان يقوم كل فرد بواجبه قولاً وفعلاً ظاهراً و باطناً وبذلك تستقيم أحوالنا .

قرأت امس في كتاب جديد لعالم عربي اغترب كثيراً في بلاد الغرب وقابل بين أمتنا وبين الامم الاخرى نبذة مؤثرة وصف فيها العرب قال : « عرف عنا نحن العرب انا ميالون الى التطرف في كل شيء ، الى تضحية النفس والى الأنانية الزائدة الى الحب العذري والى التهتك ، الى الصداقة النادرة والى الحقد اللانهاية له ، الى التأله والى الشغف بالماديات ، الى الديموقراطية الحقة والى عبادة الشخصيات البارزة ، الى الاعتداد بالنفس وشدة الاعتماد عليها ، والى سرعة اليأس والسقوط في القنوط عند اول صعوبة نجدها في طريقنا ، وبعبارة أخرى ان في الامة العربية قوى عظيمة تارة تدفعها الى أشرف الاعمال وطوراً الى أسفلها وأخسها » .

قال وسبب ذلك على مايظهر له ان هذه الامة العظيمة الذكية العاقلة على الاطلاق تعيش وتتمسك بعواطفها القوية اكثر مما تعيش وتتمسك بعقولها وتسير في حياتها واعمالها اليومية بقوة المصالح الشخصية التي لا تترك سبلاً للحصول عليها الا طرقته . هذا تاريخنا

يشهد علينا اننا قوم ذوو ذكاء ومقدرة على الاعمال وذوو نظر بعيد ولكننا سراع التأثر ضعاف قوة التوازن . وسرعان ماتقع في اليأس ان اصابتنا مصيبة وان اصابتنا حسنة اخذتنا سورة الفرح وكدنا نفقد رشدنا . قال وهذا الحكم ينطبق على الافراد والجموع ويجري على كبيرنا وصغيرنا وعالمنا وجاهلنا الا مانذر .

وانا أقول ان في هذا الحكم القاسي شيئاً من روح الحق والانصاف ، بيد ان هذا الخلق الماثل في كل طبقاتنا لا سبيل الى معالجته الا من طريق الام ، فالام مدرستنا والام مرشدتنا ، والام عمدتنا في نهضتنا ، والام سلوتنا في خلوتنا وجلوتنا ، وعليها نعقد كل الآمال في جميع الاعمال . اما هي فعليها تبعات ومسؤوليات ، واجبها كثير ، وبيدها مفتاح كل خير ، ولو صحت نيتها ان تدفعنا شوطاً الى الامام لكان لها ذلك ، لانها متحكمة في كل شيء ، مؤثرة في المجتمع ، تلبسه متى أحبت الصورة التي تستحسنها فقد قال الرصافي :

ولم أر للخلائق من محل يهذبها كحضن الامهات
فحضن الام مدرسة تسامت بتربية البنين او البنات
واخلاق الوليد تقاس حسناً باخلاق النساء الوالدات
وليس ربيب عالية المزايا كمثل ربيب سافلة الصفات
وليس النبت ينبت في جنان كمثل النبت ينبت في الفلاة

فصح وشوارد

أَثْمرَت الشجرة : خرج منها الشري . قال ابو حنيفة يقال لمثل ما كان من شجر القثاء والبطيخ شري كما يقال لشجر الحنظل . واستشرت الشجرة : كان لها شري .

وسوّط الكرّاث : اخرج سياطه وهي قضبان الكرّاث التي عليها زماليقه .

وعلّف الطلح وأعلف : خرج عُلَّفُه وهو ثمر الطلح يشبه الباقلاء الغض يخرج فترعاه الإبل الواحدة عُلَّفَة .

وأزمعت الحبَلة : عظمت زمعتها والزمع عُقد تكون في مخارج عناقيد الكرم .

وشكرت النخلة : خرج منها الشكير وهو فراخ النخل .

وأغصنت الشجرة : أنبتت اغصانها . وعسلجت : اخرجت عساليجها . والعُسلُج والعُسلوج والعِسلاج : ما لان واخضر من قضبان الشجر والكرم اول ما ينبت .

وعذق الإذخر : صارت له عذوق وشعب . والعذق كل غصن له شعب . وشكرت النخلة : كثر شكيرها .

واستأرض الفسيل : صار له عرق في الارض . وعرّق الشجر وأعرق وتعرّق واعترق واستعرق : امتدت عروقه في الارض .

وليّفت الفسيلة : غلظت وكثر ليفها .

وأَلثَت السمرة تلثى لثىً : خرج منها اللثى ولديت فهي لثية قال ابو عمرو اللثى ماء يسيل من الشجر كالصمغ فاذا جمد فهو صمرور . وتلثى الشجر : سال منه اللثى . واصمغ : سال منه الصمغ .

واغثر الرمث : سال منه المغثور . والمِغثر والمِغثار والمُغثور شيء ينضجه الثام والعشر والرمث مثل الصمغ وهو حلوٌ كالعسل يؤكل وربما سال لثاه على الثرى مثل الدبس وله ريح كريهة ج مغاثير و يبنون منه فعلاً فيقولون تمغثر الرجل اي اجتنى المغثر .

وعشب المكان : نبت عشبه فهو عاشب . وعشبت الارض : نبت عشبها وكذا عشّبت وأعشبت . وأبشرت : اخرجت بشرتها اي ماظهر من نباتها . وأبقلت : انبتت البقل . وألحست : انبتت ماتلحسه الدواب . وألمت : صار فيها لمة من الكلأ .

وأذرقت : انبتت الذُرَق وهو الحندقوق · واصغرت : صار نباتها صغيراً ·
وقد تموّه المكان اي صار مموّهاً بالبقل · وأثغم الوادي : انبت الثغام وهو شجر
ابيض الزهر والثمر كأن جماعتها هامة شيخ · واحدته ثغامة · قال الشاعر يخاطب نفسه :

أعلاقة امّ الوليد بُعَيد ما افنان راسك كالثغام المخلس

وأبهمت : انبتت البُهمي — وكثر بهماها والبهمى نبات يشبه الشعير ولعله المسمى
عند بعض العامة بالشيفون · وبدئت : صارت ذات بداةٍ اي كمأة وتراب ·
واحقلت : صارت حقلاً · واحاجت واحيجت : انبتت الحاج وهو الشوك ·
وادرمت : انبتت الدرماء وهي نبات احمر الورق ·
وربلت واربلت : انبتت الربل وهو نبات شديد الخضرة ·
وارطت : اخرجت الارطي وهو شجر نوره كنور الخلاف وثمره كالعناب واحدته ارطاة ·
وارغلت : انبتت الرُغل وهو نبت · واشاحت : انبتت الشيح ·
واغفرت : نبت فيها شيء من الغفر وهو نبات ربعي ينبت في السهل والآكام كأنه
عصافير خضر قيام اذا كان اخضر فاذا يبس فكأنه حمر غير قيام ·
وأضيَلت وأضالت : انبتت الضال وهو من السدر ما كان عذباً وقيل السدر
البري — وشجر آخر ·
وألمّت : انبتت اللُماع وهو نبت ناعم في اول ما يبدو الواحدة لُماعة ومنه « انما
الدنيا ساعة · ومتاعها لماعة » اي قليل البقاء كالنبت الأخضر ·
وأقصّت : انبتت القصيص وهو نبت ينبت في اصول الكمأة وقد يغسل بمائه الراس
وفي اللسان القصيصة شجرة تنبت في اصلها الكمأة ويتخذ منها الغسل ·
وأقحت : انبتت الاقحوان وهو نبات له زهر ابيض في وسطه كتلة صغيرة صفراء
واوراق زهره مفلجة صغيرة يشبهون بها الاسنان ·
ونشرت : انبتت النشر وهو الكلأ يبس فأصابه مطر دُبر الصيف فاخضر وهو
رديء للراعية يهرب الناس منه باموالهم ·
وظفّرت : اخرجت من النبت ما يمكن احتفاره بالاظافر ·
ودغلت : صارت ذات دغل (الاساس) والدغل هو الشجر الكثير الملتف — واشتباك

النبت وكثرته . وأدغلت : كثر دغلها . واستكلأت : صارت ذات كلأ .

واقصبت : كان فيها قصب . واقضبت : صارت مقضاباً اي تنبت القضبة كثيراً والقضب كل شجرة طالت وسبطت اغصانها — وشجر تتخذ منه القسي — والقت .

وجرزت واجرزت : صارت جرُزاً وهي الارض أكل نباتها او قُطع .

وتصربت : كان فيها تصربة وهوما يتجبر (يخضرّ ويورق) من العشب والشجر بعد اليباس .

وأفقلت : صارت ذات فقل أي ريع تقول هذه ارض كثيرة الفقل .

وأورست : صارت ذات ورس وهو نبات كالسمسم اصفر يزرع باليمن و يصبغ به ويتخذ منه الغمرة للوجه فاذا جفّ عند ادراكه تفتقت خرائطه فيُنفض فينتفض منه الورس .

ويقال تعممت الآكام بالنبت اي ظهر عليها كالعمامة .

واكتست الارض : تمّ نباتها والتفّ حتى كأنها لبسته .

وقد أراض الله الارض اي جعلها رياضاً .

وأدلست الارض : اخضرت بالأدلاس والدلس نبت يورق آخر الصيف وقيل بقايا النبت والبقل ج أدلاس . وابهجت : بهج نباتها . وجُنّت وتجننت أخرجت جنّها اي زهرها ونورها .

وقد اعشوشبت اي كثر عشبها . وحطبت : كانت كثيرة الحطب . ومثله احطبت قال الشاعر :

وادٍ حطيبٌ عشيب ليس يمنعه من الانيس حذارُ اليوم ذي الرَّهج

وبرّضت وابرضّت : كثر بارضها وهو اول ماتخرج الارض من نبت — ونبت الارض .

وأجبأت : كثرت جبأتها وهي الحمر من الكماة قال ابن احمر : الجبأة هي التي الى الحمرة ، والكماة هي التي الى الغبرة والسواد ، والفقعة البيض وبنات أوبرَ الصغار .

وأجنت : كثر جناها وهو ما يجنى من الشجر مادام غضّاً — والرُطب .

وأحشّت : كثر حشيشها او صار فيها حشيش . وأخمرت : كثر خمرها وهو ما واراك من شجر . وأخلت : كثر خلاها وهو الرطب من النبات . وادغلت : كثر دَغلُها .

« النبك » : سالم خليل رزق

آراء وافكار

كتابة الهمزة

جال بخاطري ان اكتب هذا المقال وانا أدرّس طلاب اللغة العربية كتابة الهمزة ، اذ ذكرت الصعوبات التي كنا نصطدم بها ابان التلمذة عند درسها ورأيت بام عيني الجهود العنيفة التي يبذلها اليوم التلامذة للوقوف على كنهها والتوصل الى كتابة كل همزة دون خطأ .

ان معرفة كتابة الهمزة تقتضي معرفة ما ينيف على عشرين حالة : فالهمزة في بدء الكلام لها اصول تختلف عن الاصول المتعددة التي لها في الحشو او الطرف . ولا اورد هنا القواعد كلها خشية الملل فأذكر الامثال الموضوعة التي تمثل أنواع تلك القواعد في كل مثل تكتب الهمزة على شكل مختلف .

أنملة . إصبع . لؤم . ذئب . رأس . إئذن . أؤتمنت . سأل . سئم . لؤم . مآب . مؤن . فئة . رؤوف . لئيم . يسأل . يلؤم . ببئس . الراءي . الرائي . بقاؤه . بقاءه . بقائه . قراءات . جزء . جروء . قرأ . صديء . نشأة . لؤلؤة . خطيئة . قراءة . مروءة . ملاءى . سوءى .

هذه هي الامثال التي تمثل مختلف القواعد التي وضعها الصرفيون لكتابة الهمزة . فانت ترى انه يعسر على الطالب ان يجمع في ذهنه كل هذه الحالات : الهمزة في الابتداء . في الوسط . في الطرف . متحركة . ساكنة . قبلها فتحة . ضمة . او كسرة . وقعت بعد حرف مد . اوقبل تاء التأنيث . بين الالف والياء . اوغير الياء وهلم جرا .. كل هذه الامور يجب ان يفكر فيها الطالب عندما يحاول كتابة همزته دون خطأ .

لما ذا كل هذا ايها اللغويون ؟ ما القصد من الخط ؟ أليس القصد هو ايصال أفكارنا الى غيرنا بطريق الكتابة . فلو كتبنا مثلاً جرُوء بهذا الشكل او كتبنا الهمزة بصورة حرف حركتها اي بصورة الالف هكذا جرأ . الا نلفظها في الصورتين لفظاً

واحداً . إذن لماذا لا نوحد هذه القواعد الكثيرة ونختصرها بقاعدتين فقط وهما :

اولاً : اذا وقعت الهمزة في ابتداء الكلام تكتب بصورة الالف مطلقاً .

ثانياً : اذا وقعت في غير الابتداء تكتب بصورة حرف حركة ما قبلها اذا كانت ساكنة . واذا كانت متحركة تكتب بصورة حرف حركتها .

بهذا التوحيد نكون أزلنا عقبات جمة من أمام الطلاب وكتاب اللغة العربية كافة فما رأي الاساتذة علماء اللغة والصرف في ذلك ؟ .

راضي دخيل



مطبوعات حديثة

جمهورية افلاطون

كتاب جليل الفـائدة يقع بنحو ثلاثمائة صفحة من قطع الربع اهدته مجلة المقتطف الغراء الى قرائها في منتهى هذا العام (عام ١٩٢٩) وهو مجموعة كتابات فلسفية يونانية لمعلم الفلاسفة العظيم افلاطون كانت مبعثرة في كتب جمة فجمعها الكتّاب الانكليز في كتاب واحد . ثم نقلها السيد حنا خباز عن الترجمات الانكليزية .

كُتبت فلسفة أفلاطون بصورة محاورات صعبة الفهم لان الحكمة فيها ممزوجة بالشعر والفن بالعلم مزجاً يُطرب . فتجد فيها الجد مع الهزل ، والوضع مع الاستعارة ، واللب مع الخرافة ، والحقيقة الواقعـة مع الأمثال الى غير ذلك من ضروب التفنن والمضادات مما يلقى فيه القارئ احياناً مالا يستطيع الى إدراكه سبيلاً فان عقول هذا العصر غير عقول ذلك العصر السحيق الذي كُتبت فيه فلسفة افلاطون .

على ان حكمة افلاطون مع ما فيهـا من المعميات والمتضادات بقيت ولسوف تبقى ابداً كنزاً من أثمن كنوز العالم فمسائل الشيوعية والاشتراكية وتحرير النساء وتحديد النسل والعود الى الطبيعة والتعليم الحر وغير ذلك من القضايا الفلسفية التي نحسبها اليوم من مبتكرات عصرنا تجدها جميعاً في محاورات افلاطون فوق ماتجد فيها مما يتعلق بما وراء الطبيعـة والالآهيات والنظام الأدبي وفلسفة النفس والسياسة والفن وغير ذلك من المواضيع الحكمية المهمة .

اننا نشكر للسيد حنا خباز نقل هذا الكتاب القيم الى اللغة العربيـة ونشير الى محبي الفلسفة بمطالعته بامعان لانه يقوم مقام مكتبة كتب فلسفية برمتها .

عبد الله رعد
عضو المجمع العلمي

هدايا كتب

أهدى الى مكتبة المجمع الاستاذ الشيخ سعيد بن محمد الشريف الشهير بالزواوي الجزائري كتابين من مصنفاته .

(١) (كتاب الاسلام الصحيح) «وضعه على قواعد الاسلام الأصلية المتفق عليها لا المختلف فيها من غير التزام ما لا يلزم مما أحدثه بعض القوم ومن غير اعتماد مذهب دون مذهب» . وقد أفرغه في قالب السؤال والجواب فقدم مباحث العقائد ثم السيرة النبوية فأصول الفقه ففروعه فمباحث أخرى مهمة مما لا يحسن بالمسلم ان يجهله كبحث المذاهب والتقليد والتصوف والولاية والكرامة والمهدي والفرق الاسلامية — كل ذلك في ١٢٣ صفحة مطبوعة في مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٥ .

(٢) الكتاب الثاني عنونه بكلمة (خُطَب) وقد كدّسره على بحثين البحث الاول في ما هي الخطابة وتقسيماتها والخطباء المشهورين واخبارهم . والبحث الثاني في ذكر طائفة من خطبه التي القاها (بحكم الوظيفة) في جامع (سيدي رمضان) بالجزائر .

والمؤلف معروف في دمشق منذ كان نزيلاً فيها قبيل الحرب العامة . وهو من العلماء الذين يميلون الى التجديد والاصلاح الديني عن طريق الدين نفسه . ولا ريب ان كتابيه من خير ما يطالعه المطالعون الذين يهمهم امر دينهم . وصلاح حال أمتهم . كما يهمهم امر أنفسهم .

وأهدى الينا الاستاذ الفاضل الدكتور جورج صوايا صاحب جريدة الاصلاح وهو احد ابنائنا المهاجرين في (بوانس آيرس) الممتازين بحميتهم الوطنية — ديوانه الذي سماه (همس الشاعر) وقد قال في مقدمته : انه «نظم بعض قصائده إبان ثورات نفسيه تمر بالشواعر فتحدث فيها ارتجاجات يحاك من وقائعها كلام مرسل او موزون قد يصح ان يسمى شعراً» وضمنه «قصائد كان الاولى اتلافها انما احتفظ بها لارتباطها بتذكارات طيبة ضنّ برسومها . وحوادث درست لم يُر بأس باستبقاء صداها» .

وقد جرى الشاعر الفاضل في أسلوبه على النمط العصري الذي اشتهر به اخواننا عرب المهجر وهو أسلوب نرحب به بشرطين : (آ) ان يكون مفهوماً وهو شرط لا بد منه .

(٢) ان لا تخالف فيه قواعد اللغة العربية مخالفة فاحشة . وقد أعجبنا من شعر الناظم قطعة تحت عنوان (أم اللغات) قرّظ بهـا مؤلفاً وضعه باللغة الاسبانية السيد انطون الياس أثبت فيه ان اللغة العربية ام اللغات الحية . والقطعة هي هذه :

(تي — يا أعاجم — أمّ الـ ـلغـات مجـداً وسؤدد)
(فليس أرحب صدراً منها واكرم محتد)
(لو عاد للارض عيسى لهام فيها كأحمد)
(وبات فيهـا يصلي عيسى. كأحمدُ وحمّد)

فلله دره ما أشرف عاطفته . وأصدق لهجته . واكثر من أمثاله في ابناء الوطن العربي .

وكتاب (تلخيص السيرة المحمدية) على صاحبها أفضل الصلاة والسلام جمعها الشيخ محمد صالح احمد الخطيب الدمشقي الحنبلي . وهو كتاب صغير الحجم مدرسي الترتيب وقد طبع على نفقة (مدرسة الامينين) في مطبعة (ابن زيدون) بدمشق .

وأهدي الينا ايضاً كتاب (مختصر تاريخ سوريا ولبنان) معرباً عن الافرنسية بقلم احد الآباء اليسوعيين ومطبوعاً في مطبعتهم . وهو كتاب مدرسي مرتب ترتيباً حسناً . فنلفت اليه انظار المعلمين ومديري المدارس .

وكتاب (مختصر تاريخ فرنسا) يتضمن حوادثه منذ عهد الغاليين القدماء الى هذا اليوم مع لمحة مختصرة عن الحرب العالمية الكبرى . وضعه الاستاذ سليم يوسف خوري رئيس مدرسة صيدا الرسمية طبقاً لبرنامج المعارف العامة وهو كتاب مدرسي ايضاً فنلفت اليه الانظار .

ورواية (مصرع الباغي وخيم) مأساة ادبية ذات ثلاثة فصول وضعها السيد نصرت عبد الكريم سعيد طبعت في (المطبعة المارونية) بحلب .

« المغربي »

الفهرس العام

« لما في هذا المجلد من المواد والموضوعات مرتباً على حروف الهجاء »

« حرف الالف »

« حرف الباء »

فهرست الاعلام

«اي اسماء كتّاب المقالات المنشورة في هذا المجلد مرتبةً على حروف المعجم»

جدول الخطأ والصواب

ورد في أجزاء هذا المجلد بعض أغلاط مطبعية نبهنا اليها فيما يلي :

جاء في ص ١٨٠ س ١ ضمنه الصواب ضمنه · وفي ص ٣٠٦ س ١٨ يارو بعي صوابها يا رو بعي الغنم · وفي ص ٣١٠ توقيع صاحب المقال هكذا صوابها (الاستانة وامق شكري) · وفي ص ٣٣٠ س ٢٢ عبد الله صوابها عبد الله · وفي ص ٤٢١ س ٤ بنجو صوابها بنحو · وفي ص ٤٢٥ س ١٢ أاده صوابها أداه · وفي ص ٤٣٣ س ٢و٣ و٤ استبدال الحروف الخ الصواب (استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية) (ومنذ استبدل الاتراك الحروف اللاتينية في كتابتهم بالحروف العربية) · وفي ص ٥٢٢ س ٣ ورأشفه صوابها وأرشفه · وفي ص ٥٢٧ س ١ باخنص صوابها باخنض · وفي ص ٥٤٣ س ٢٥ (١٦و١٨) صوابها (١٦و١٩) · وفي ص ٥٤٩ س ٢٥ لدراً صوابها بدراً · وفي ص ٥٧٥ س ١٢ في القرن السابع عشر الصواب في القرن الثامن عشر · وفي ص ٦٠٠ س ١٧ ما نقلضته صوابها ما نقضته · وفي ص ٧١٩ س ٩ منذ صوابها مذ ·